


# إسلاميات

- طه حسين
- العقاد
- حسين هيكل
- أحمد أمين

تقديم: د. محمد محمد الفحام

بقلم: سامح كريم

## رجال وكتب .. في سبيل الإسلام

# إسلاميات

بقلم

سامح كريم

الغلاف من تصميم

الفنان مجدى نجيب

# إســـــلاميات

طــه حسين

عباس محمود العقاد

محمد حسين هيكل

احمد أمين

سامح كريم

# تقـــــديم

بقلم الامام الأكبر الدكتور محمد محمد الفحام
شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام نعمة الله الكبرى على العباد ، به يستقيم الفكر ، ويرشد القلب ، ويمضى السلوك إلى صراط الله المستقيم .

ونظرة واحدة توازن بين حالى البشر قبل الإسلام وبعده تعطى هذه النتيجة بما لايحصى من الأدلة والبراهين والفاهمون المنصفون وحدهم هم الذين يعقلون بحق قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

وإن دعاة الإسلام بالقلم واللسان لهم أحسن الناس قولا ، وأسلم الناس رأيا « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » .

وكل نعمة فى المجتمع الإسلامى مردها إلى سببها الحقيق وهو التزام الإسلام ، وكل إنحراف فى المجتمع الإسلامى مرده إلى سببه

الحقيق وهو تسلط الأهواء والله تعالى يقول : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

الإسلام إذن هو الدين الحق . والحق فى كل مجتمع رجاله ، ودعاته وأعلامه ، لايتوقف ذلك على غير القلب السليم والفكر الناضج ، والظروف المواتية ، فإذا تجمع لإنسان كل هذا كانت الدراسات المتخصصة عوناً له وسنداً ومدداً .

والكتاب الأربعة الذين أختارهم إبننا العزيز الأستاذ سامح كريم لتصوير خصائص أقلامهم ، والاشادة بثمار قرائحهم فى عرض الإسلام وخدمة قضاياه . عن طريق تناول الموضوعات ، وتراجم الشخصيات ، هؤلاء الأربعة نعرف لهم منازلهم ، ونعترف لهم بجمال ما قدموا ، وجميل ماصنعوا . فمن منا لايعرف الدكتور طه حسين ، والأستاذ عباس محمود العقاد ، والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور أحمد أمين ؟

إن الذى لايعرفهم هو المنعزل عن فكر أمته ، وتراث سلفه ، ولا يعنيه أن يتلفت إلى ثمار القرائح الفاهمة للإسلام المجاهدة فى بيان جلاله وجماله . .

ولقد قرأت هذا الكتاب فسرنى مالمسته من قدرة المؤلف على تحديد ملامح كل كاتب واعطاء خصائصه ، والاستشهاد لذلك بكثير من كتاباته . فكأن يعطى بذلك إلى جانب صورة الكتاب صورة مؤلفه وخصائص أسلوبه .

إن الجديد الذى أضافته كتابات الدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل والأستاذ عباس محمود العقاد والدكتور أحمد أمين هو أنها أخرجت السيرة المحمدية فى ثوب جديد وتحدثت عن النبى صلى الله عليه وسلم حديثاً لايسع العقل المنصف إلا أن يقر به ويجله ويحترمه ، وردت بهذا الأسلوب العلمى القوى على كتابات المغرضين من المتعصبين ضد الإسلام الذين يقدحون فى حقائقه بسوء نية وينكرون وجود الشمس لأنهم عمى لايبصرون .

هذا . ولقد أعجبنى من إبننا الأستاذ سامح كريم قراءاته الواسعة ووقوفه عند الخصائص التى تميز بها إنتاج المؤلفين العباقرة ، وإلحاحه المشكور على قراء العربية أن يعطوا الكتب وقتا أطول وعناية أكبر، ونظراً وفكراً ، وأن كتابه هذا يثير الرغبة الجارفة فى قراءة الكتب التى يقدم خصائصها ويتحدث عن مناهجها . ثم أعجبنى منه قوله فى نهاية هذا الكتاب .

« وهذا الجهد المتواضع الذى أسعفه توفيق من الله وعونه ليس سوى إشارة إلى هذه الإسلاميات الحافلة . . بالنظريات والمناقشات والتساؤلات والآراء والأفكار » .

غير أن لى بعد ذلك وقفة مع الأستاذ سامح حول قوله عن الكتاب الأربعة أنهم يقتحمون ميدان الكتابات الإسلامية ، وهو ميدان ما كان لأمثالهم من غير المتخصصين فى الكتابات الدينية .

وخلال هذه الوقفة نرى فى موضوعها أمرين :

(ا) أن كل فاهم للإسلام ، دارس له مستوعب لقضاياه إنما هو من المتخصصين في الكتابات الدينية وليس بلازم أن يتخرج في معهد بعينه ، المهم أن يكون دارسا بعمق ووعى وورع وفهم أصيل .

(ب) الدكتور طه حسين أزهرى النشأة ، وكذلك الدكتور أحمد أمين ، وأما الدكتور هيكل والأستاذ العقاد فقد تخرجا على كتب الأزهر وإن لم يتخرجا فيه .

ولو أن الكتاب حفل بالعناوين الجزئية والجانبية لكان ذلك أعون على التحديد والتحصيل . . ولو أن الكتاب عنى بالرد على شبهات المبشرين كما عنى بتسجيلها لكان أوفق وأجمل . . وخصوصاً أنه علل نشاط إنتاج التاريخ الإسلامى فى الفترة التى ظهرت فيها هذه الكتابات بنشاط معاد للإسلام فكانت تآليف هؤلاء الأربعة الكرام رد فعل مشكوراً لهذا الهجوم المغرض الظالم ضد الإسلام . .

ومما هو جدير بالتسجيل أن الإسلام يزداد صلابة وصموداً كلما تفنن خصومه فى الكيد له ، ومن آيات صموده فى الثلاثينات هـــذه الإسلاميات التى يحصرها لنا المؤلف . . وكل مايحتاجه الإسلام .

(ا) أن يجد العقل الفاهم .

(ب) والقلم المعبر .

(ج) والمجتمع المطبق لتعاليمه .

(د) والحرية التى لاتضاد أنواره .

ودين الله مع ذلك جديرة أنواره أن تبدد الظلام مهما كان معتكراً كثيفاً .

لاحظت كذلك القسوة — من المؤلف — على من سماهم المعارضين إذ وصمهم بالتعصب والجمود .

كما لاحظت التأثر بعبارات علماء النفس مثل « عبادة البطل » و«عبادة الخير والحق والجمال» وكلمة عبادة لاتجوز لغير الله وكان الأولى أن يقال بدل عبادة . . تقدير البطل والاعجاب به ، والإيمان بالخير والحق والجمال . .

وأخيراً نقرر فى إعتزاز أن كل بطل من أبطال هذه الكتابات الإسلامية صنعه الإسلام دون أن يكون هذا البطل قبل الإسلام شيئاً مذكوراً إلا فى عداد أعداء الدين . . والدين الذى صنع هؤلاء لازال بيننا بكتابه الكريم ، وسنة رسوله الأمين . فمن أراد أن يبلغ مابلغوا فليمض على نفس الطريق . فإن هـــذا القرآن يهدى للتى هى أقوم .

وأخيراً أشكر إبننا العزيز الأستاذ سامح كريم وأعرف له نشاطه واستيعابه وأقدر له حسن إتجاهه إلى الكتابة الإسلامية والاشادة بالأقلام التى تركت فى مجالها أثراً محموداً وأسأل الله تعالى أن ينفع به طول حياته ، وأن يجزل له الثواب لقاء ماقدم لدينه ووطنه ؟

**د . محمد محمد الفحام**

# كلمة . .

في لقاء مع الدكتور طه حسين وجهت اليه السؤال الذي يعيش في وجدان وعقل كل من قرأ عمله العظيم « الفتنة الكبرى » وهو : هل سيتيح للقارىء العربي أن يقرأ « الفتنة الكبرى » في جزئها الثالث ذلك الذي وعد به ؟

أجاب سيادته بأنه يرجو ذلك ويتمناه .

وتطرق الحديث فشمل الاسلاميات وكتابها . وهنا طرح الدكتور طه حسين سؤالا اراه جديرا بالاهتمام والبحث وهو : ما الذي فعله الجيل التالي لكتاب الاسلاميات حيال هذه الكتابات ؟ هل قام احدهم بعملية الرصد الواجبة لما جاء فيها من أساليب وأفكار ؟ وأين مكانها من فكرنا العربي الحديث بوجه عام ؟

ثم يتساءل عميد أدبنا العربي قائلا : هل كتبت لنبقى هكذا فوق أرفف المكتبة . . حتى يأتيها مستشرق يخصص الكثير من عنايته لدراستها . . والله وحده هو الذي يعلم كنه هذه الدراسة ؟

والحق انني لم أجد ما ارد به على عميد أدبنا العربي غير القول بأن بعض الأقلام العربية لم تزل تناقش هذه الاسلاميات بين حين وآخر .

وهنا يرد سيادته بأن مايفعلونه لايتعدى عرض واحد من الكتب أو نقده أو دراسته . ولكن مايعنيه هو أن تكون هناك دراسة شاملة لهذه الاسلاميات .

ويمضي على حديث عميد أدبنا العربي — الذي نشرت مجلة الاذاعة جزءاً منه — ثلاث سنوات تابعت خلالها المكتبة العربية علني اظفر باجابة لسؤال الدكتور العميد يكون في صورة كتاب عن الاسلاميات ولكن دون جدوى .

والآن وقد كان لي شرف المبادرة ، برغم تواضع ما اقدمه من عمل الى جانب هذه الأعمال الشامخة تلك التي قدمها اصحابها . . لا أزعم

لنفسي بانني قد اوفيت بالغرض المنشود ، او الهدف الذي كان يرمي اليه عديد ادبنا العربي . ولعل عذري في ذلك ان دراسة الكتاب الواحد من هذه الاسلاميات تكفي أو تزيد على تغطية صفحات مثل هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم . ولا عجب ففي بعض كتبها من الخصب والنماء ماغطت به حاجة رسالة جامعية كما حدث في كتاب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل حين اتخذ منه واحد من المستشرقين مادة لرسالة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي الحديث للسيرة النبوية الشريفة .

اقول ان كنت لم اصل بعد الى ماينبغي ان تكون عليه دراسة مثل هذه الكتابات العظيمة فيكفيني انني قدمت خطوة على الطريق لا اشك في أن هناك خطوات تعقبها قد تكون اشمل وافضل .

وبعد هذه الاشارة السريعة ، ان كان هناك مجال لتقديم هذه الصفحات ، يمكن القول في كلمات بانني ساصحب القارىء الذي تروق له قراءة الأسلام مبسطاً ممتعاً شائقاً في رحلة داخل فكر كل واحد من هؤلاء الأربعة الذين يمثلون علامات مميزة لفكرنا العربي الحديث وهم : « الدكتور طه حسين » و « الاستاذ عباس محمود العقاد » و «الدكتور محمد حسين هيكل» و «الدكتور احمد امين »

وفي هذه الرحلة نتوقف معاً لننظر من بعيد نظرة شاملة الى تلك الدوافع والاسباب التي جعلت هؤلاء الأربعة يقتحمون ميدان الكتابة الاسلامية . . وهو ميدان ما كان لامثالهم من غير المتخصصين في الكتابات الدينية ان يقتحموه . وعند هذا الحد نكون قد قطعنا معاً الفصل الأول من الكتاب :

ونسرع الخطى فنحن على موعد مع أول من دعا الى كتابة الاسلاميات وهو الدكتور طه حسين وعنده تبهرنا دعواه المبكرة في اتباع المنهج العلمي الحديث في تقييم هذا التاريخ الاسلامي ، كما

تبهرنا كلماته واسلوبه المنفرد حين يحدثنا عن الحياة الادبية فى الاسلام .

ويسلمنا هذا الفصل الى الفصل الثالث . . الى اسلاميات الدكتور احمد امين: وعندها نقف مشدوهين امام هذا العمل العظيم من الفكر . حيث ينظر العقل فى العقلية الاسلامية .. وعلى الرغم من ان نظرة العقل فى العقل تعتبر فلسفة الا ان اسلوب الدكتور احمد امين كان مترفقا وفكرته واضحة مما اتاح للعقل ان ينظر الى العقل فى غير تفلسف.

بعد هذا نجد انفسنا وجها لوجه امام الدكتور محمد حسين هيكل واسلوبه المميز الذى يعتبر خير سفير للاسلام حين تخطت كتبه الاسلامية الحدود لتدرس فى جامعات الأجانب . ويمضى بنا الوقت سريعاً فى الاستمتاع بقراءة اسلوب الدكتور هيكل الذى يختلف ولا شك عن اسلوب كل من زميليه السابقين . وهو مايشغل الفصل الرابع :

من بعده يفتح الطريق الى حيث المطاف . . حيث هذه الموسوعة الاسلامية الضخمة لعملاق فكرنا العربى عباس محمود العقاد . وفيها تدور اعيننا على صفحات ما يقرب من الثلاثين كتابا ، متنقلين بين ثلاثة اساليب للتناول. فكتبه التى تحدثنا عن العبقريات ليست مثل التى تحدثنا عن الشخصيات والاثنتين تختلفان ولا شك عن الدراسات والابحاث . ونودع العقاد قائلين فى اعجاب : كم كنت عظيماً عندما دافعت عن الاسلام ونبى الاسلام صلى الله عليه وسلم .

وهنا نتوقف لنسأل انفسنا سؤالا وهل اضاف الاربعة بما كتبوا عن الاسلام — نبيه ورجاله ونظامه وعقيدته — جديداً الى التفكير الاسلامى نفسه ام ان كتاباتهم كانت تحصيل حاصل ، وصورة طبق الأصل لكتابات قديمة ؟

والسؤال واجابته تستوعبهما السطور الأخيرة لهذا البحث . . والله أسأل ان يوفقنا الى ما فيه الخير .

« سامح كريم »

# الفصل الأول

## الإسلاميات . معناها وأسبابها

**من الأمور الشاقة التي كانت تواجه الباحث في تاريخ العرب ـ أسلوبهم في كتابة هذا التاريخ .. فقد درج العرب على كتابة حوادثهم في حوليات . فيذكرون الأحداث في شتى نواحيها .. يختلط فيها الدين بالعلم والأدب والسياسة والشعر . ولعلهم اعتبروا الاحاطة بكل هذه الجوانب دليل مقدرة ، لذلك تصوروا الأدب مثلا هو الأخذ من كل شيء بطرف .. فنرى الجاحظ يكتب في « البيان والتبيين » تفسير آية الى جانب حكاية الى جانب قصيدة شعرية الى جانب رأى لصاحب المنطق .. وهكذا استطرادات لايجمعها خط واحد أو تصنيف واحد .**

لهذا كانت مهمة الباحث الحديث شاقة عسيرة ، تحتاج إلى إحاطة شاملة بكثير من العلوم من تفسير وحديث وتاريخ وفقه وأدب واجتماع وفلسفة وعلم كلام وتصوف .

وأصعب من هذه المهمة . . مهمة القارىء لهذه المادة ، فقراءتها عسيرة ، وفهمها أعسر ، وتذوقها أشد عسرا . . فأين هذا القارىء الذى يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطولة ، والأخبار التى يلتوى بها الاستطراد ، وتجور بها لغتها القديمة على الفهم السهل ، والذوق الهين.. الذى لا يكلف الناس مشقة ولا عناء ؟

وأين هذا القارىء ــ وبخاصة فى زماننا هذا ــ الذى يحيط بكثير من العلوم من تفسير وحديث وتاريخ وتصوف الخ . . لكى يقرأ خبرا من أخبار العرب الأقدمين أو يقف على واقعة حدثت فى الماضى البعيد ؟ .

وأين هذا القارىء النهم الذى يملك من الوقت ما يسمح له بالبحث فى المتون والأسانيد والحوليات عن قصة من القصص جاء ذكرها فى العصر القديم ويريد الاستمتاع بقراءتها أو الرجوع إليها ؟ .

وأين هذا القارىء الذى يفضل قراءة التاريخ العربى بهذه الصورة التى بلغ فيها التعقيد شأنا عظيما ، على قراءة تواريخ الأمم الأخرى بصورة مبسطة غير مستغلقة على فهمه أو حتى تاريخنا العربى نفسه بأقلام مستشرقين ومبشرين استطاعوا أن ينفذوا إلى هذه المادة التاريخية ليأخذوا منها ما يريدون ثم يدسوا فيها ما يشاء لهم الدس بأسلوب مبسط بالنسبة للقارىء ؟ .

وهنا برزت الحاجة إلى إعادة كتابة تاريخنا الاسلامى من جديد ورسم صورة أعلامه كالنبى صلى الله عليه وسلم ورجال الصدر الأول من الإسلام . . من خلفاء وقادة وفلاسفة وعلماء ، وكذلك كتابة دراسات وأبحاث عن الدولة الاسلامية . نشأتها وتطورها . . ماضيها وحاضرها . . وكل هذا على النحو الحديث فى طريقة العرض والتحليل ، ووضع الأفكار غير ملفوفة برداء من الغموض يحجبها عن الباحث أو القارىء . . فلا ينصرف أحدهما عن هذه المادة أو يفضل غيرها .

ولعل هذا ما تنبه إليه الامام محمد عبده حين أخذ على عاتقه مهمة البعث الجديد لتاريخ الاسلام وجلاء صورته . . فكانت كتاباته بمثابة الصورة المثلى لما يكون عليه الاسلوب من الدقة والوضوح ، كما كانت فى نفس الوقت الرد المفحم على خصوم الاسلام هؤلاء الذين تقيدوا للهجوم على الاسلام ونبيه . وكان فى مقدمة ما هاجموه هو أسلوب المسلمين الأوائل فى تاريخ أحوالهم ، وهو ما تعرضنا له فى السطور السابقة .

على أن الشيخ محمد عبده لم يكن هو أول من كتب فى الاسلام

على الطريقة الحديثة ، وإنما كان هناك أستاذه الشيخ جمال الإفغانى ، وعبد الرحمن الكواكبى . ومن بعدهؤلاء جميعا جاء محمد رشيد رضا ، ومحمد فريد وجدى ، فأعطوا المادة الاسلامية شطرا من إهتمامهم وعنايتهم . وتحدثوا عن الاسلام دينا ونظاما ورجالا على النحو الحديث .

إلا أن الإهتمام بكتابة التاريخ الاسلامى قد توقف فترة إلى أن بدأ واضحا قويا فى ثلاثينات هذا القرن ، فصدر فى أقل من عام أكثر من عشرين كتابا فى الاسلام وبالتحديد عام ١٩٣٥ . وهذه الكتب سلكت المنهج الحديث فى كتابة التاريخ . . وفى مقدمتها : « الاسلام والحضارة » للأستاذ محمد كرد على ، « ضحى الاسلام » للدكتور أحمد أمين ، « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل ، وترجمة كتاب « الاسلام والتجديد » للأستاذ عباس محمود ، وهو بالطبع غير عملاق الفكر العربى عباس محمود العقاد الذى بدأ كتابة موسوعته الاسلامية الضخمة فى أربعينات هذا القرن . وغير هؤلاء ممن قدموا كتابات وصل تعدادها — كما قلنا — إلى أكثر من عشرين كتابا .

وصدور هذا العدد من الكتب التى تعالج الاسلام نظاما ورجالا ودينا فى أقل من عام .. يعتبر فى حد ذاته ظاهرة إجتماعية تستحق البحث والدراسة ، خاصة وأنه لم يكن هناك قبلها إهتمام يذكر اللهم هذا النذر القليل الذى يخرج فى صورة كلمة أو مقالة أو على أكثر تقدير بحث إلى جانب ما يخرج بالطبع من كتب بالطريقة القديمة .

وما يزيد هذه الظاهرة استحقاقا للبحث والدراسة أن معظم مؤلفى هذه الكتب الحديثة لم يكونوا من رجال الدين المتفرغين للكتابة فى المسائل الدينية، والذين لا يستغرب منهم الكتابة فى هذا الميدان. ولكن الغريب أن من أقبل على طرق هذه الموضوعات الدينية . . لم يكونوا من المتخصصين . وفى مقدمتهم الدكتور طه حسين ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والدكتور أحمد أمين والأستاذ عباس محمود العقاد وهم الأربعة الذين نعرض لكتاباتهم هنا فى الاسلام ، والتى عرفت فيما بعد بالاسلاميات .

وهذه الاسلاميات التى برزت فى ثلاثينات هذا القرن نوع من الكتابات الاسلامية تجمعت لمفكر واحد كتبها وفق منهج علمى فى البحث . . . وذلك من حيث العرض والتحليل والاستقصاء . وفيها جلاء لصورة الاسلام نظاما ودينا ورجالا . وهى إلى جانب هذا كله تقديم لحقائق الاسلام . . تلك التى تبطل إفتراءات خصومه .

وانصراف هؤلاء الكتاب الأربعة غير المتخصصين فى الكتابات الدينية إلى هذا النوع من الكتابات لا بد أن يكون له أكثر من دلالة .

والحق أنه كان هناك بالفعل أكثر من سبب وأكثر من عامل دفع هؤلاء الكتاب الأربعة للكتابة فى الاسلام ومن هذه العوامل والأسباب :

أولا — إزدياد نشاط الحركة التبشيرية التى تناقلت الصحف يومئذ أخبارها فى ثلاثينات هذا القرن ، وكانت الجامعة الأمريكية

بالقاهرة هى مصدر هذه الدعاية التبشيرية ، وكان غريبا حقاً هذا النشاط الذى أبداه المبشرون والذى لم يسمع بمثله من عشرات السنين فقد إمتد من القاهرة إلى بورسعيد وإلى غيرها من المدن ، وقد أسهبت صحف ذلك الوقت فى وصف وذكر الاغراءات المادية التى لجأ إليها المبشرون لحمل السذج على إعتناق غير الإسلام . ولقد كان الأربعة « طه حسين ومحمد حسين هيكل ، وعباس محمود العقاد ، وأحمد أمين » من أشد الناس تحمساً لمقاومة هذا التبشير إقتناعاً منهم بأن هذه الحركة يقصد بها إضعاف ما فى النفوس من ثقة بدين الدولة الرسمى ، ولما تنطوى عليه من قصد سياسى هو إضعاف معنويات الشعب بإضعاف عقيدته بالإضافة إلى أنهم رأوا فى هذه الحركة التبشيرية نفسها مقاومة لما يؤمنون به من « حرية الرأى » فإغراء السذج والأطفال من المسلمين بهذه الوسائل المادية لحملهم على تغيير دينهم أو حتى حملهم على تغيير رأيهم فى الحياة هو محاربة دنيئة لهذه الحرية ، وهو من ناحية أخرى استغلال للضعف الإنسانى كاستغلال المرابى حاجة مدينه ليقرضه بالربا الفاحش . والتبشير فضلا عن كل ذلك مناف لقواعد الأخلاق مادام يتم فى الظلام ولا يصارح القائم به الناس ليناقشوه فيما يقول ويدعو، وليبينوا ما فيه من زيف وفساد .

وكان من أثر هذه الحركة التبشيرية ، وموقف هؤلاء الأربعة ومن يشايعهم أن أندفعوا فى مقاومتها بالطريقة العلمية المثلى ، وفكروا وتدبروا فلم يجدوا خيراً من إعادة كتابة التاريخ الإسلامى بطريقة يقتنع بها المسلم وغير المسلم .

ولا شك أن الأربعة فكروا في مقاومة هذه الحركة بطريقة علمية واضحة لحكموا العقل قبل العاطفة ولا أدل على ذلك مما نقرأه في كتاب حدهم « الأستاذ عباس محمود العقاد » الذى ننقل منه هذه العبارة للتدليل على هذا التفكير . يقول العقاد فى كتابه « ما يقال عن الإسلام » فى صدر الحديث عن المبشرين ما يلى :

« ولا يقل عن هؤلاء الكفرة فى عداوتهم للاسلام – يقصد الماديين – جماعة المؤمنين المحترفين سماسرة التبشير الذين يتخذون تشويه الاسلام صناعة يستدرون بها الرزق ويتوسلون بها جاه الرئاسة وسمعة الصلاح والتقوى بين المتعصبين والجهلاء فى البلاد الأوربية والأمريكية . فهؤلاء أصحاب مصلحة فى تشويه الدين الاسلامى وتمثيل المسلمين على الصورة التى تذكى عند القوم جذوة التعصب وتغرى لهم فى الجهالة والغفلة ، فلا يسرهم أن تظهر الحقيقة لمن يستأجرونهم ويرسلونهم للتبشير ولا يندر أن يكون المبشر ملحداً بالدين كله . ولكنه يعلم أنه يقطع موارد رزقه اذا كشف عن الحادة ، أو قال عن الاسلام قولة حق وانصاف تمحو عداوة الأعداء وتضعف غيرتهم وحماستهم للحملات التبشيرية فى بلاد المسلمين فهو كاذب متعمد متنفع بالكذب لايزحزحه عنه علمه بالحقيقة ولا هو يسعى الى علمها برضاه » .

ويفرق الأستاذ العقاد بين هؤلاء المؤمنين المحترفين وبين المصدقين برسالتهم عند النظر إلى أقوال المبشرين فيقول فى نفس المصدر .

« فالمبشر المؤمن بدينه ربما انحرفت المخالفة الدينية بعاطفته فنظر الى الأشياء على غير وجهتها واخطأ الحكم عليها ، غير متعمد أن يخطىء او يصر على خطئه . وربما لاحت له فضيلة من فضائل الدين الذين ينكره او من فضائل أهله فلم ينكرها ولم يحاول أن يطمسها ويخفيها ولكنه يأسرها على سنة الأقدمين من المبشرين

**تفسيراً يوافق رأيه فى عقيدته وعقائد المخالفين له من المستحقين للغضب الله فى زعمه » .**

بهذا النمط من التفكير سلك الأربعة الكبار فى مقاومتهم للتبشير ورجاله .

ثانياً — دخول بعض الكتابات الأجنبية عن الإسلام إلى البلاد .
ونعنى بهذه الكتابات تلك التى صاحبت حركة الاستشراق العالمية ، والتى بدأت فى أوربا فى أوائل القرن الثامن عشر أو قبل ذلك، يوم بدأت أوربا تراجع معتقداتها وتتصل بالعالم الخارجى . . اتصال كشف وتقيس كل ما كانت تعرفه على الواقع والحقيقة . . وكان التراث الإسلامى هدفا من أهداف بحث المستشرقين وهنا ظهرت بعض الكتابات التى تسىء إلى الإسلام ونبى الإسلام صلى الله عليه وسلم . وهذه الكتابات إن سلمت من غرض تشويه الاسلام كهدف فلابد أن تقع فريسة أخطاء أخرى ليكون من نتيجتها تشويه الإسلام أيضاً مثل عدم توافر الأمانة العلمية الواجبة ، أو عدم الاحاطة بالإسلام ديناً ونظاماً وعقيدة ، أو عدم التمكن من اللغة العربية فضلا عن بعض التعصب الدينى وكثير من التعصب القومى .

وعلى الرغم من أن هذه الكتابات مضى عليها زمن طويل إلا أنها وقعت فى أيدى جيل الثلاثينات ، ذلك الذى أصبح يقرأ باللغات الأجنبية ولا يجد فى نفس الوقت من المؤلفات العربية مايستطيع الوقوف به أمام هذه الكتابات المبنية فى كثير من جوانبها على الحجة والمنطق . حقيقة كان هناك من الكتابات العربية مايقدم نبى الإسلام صلى الله

عليه وسلم، ولكن بصورة تسيء إلى الحقيقة، بما تنسبه إليه من معجزات وخوارق لا يصدقها عقل ولا هي تفيد في تأكيد رسالته النبوية . فكان هذا الجيل من المثقفين أميل إلى تصديق كتب المستشرقين الذين يخاطبونه بما يتفق مع عقليته الجديدة واختلاف النتائج التي كان يصل إليها هؤلاء المستشرقون ما بين مقر بعظمة الإسلام ونبي الإسلام، ومنكر لها .. مع زعم الفريقين بأن ما انتهى إليه بحثهما هو نتيجة للنظر العلمي المجرد . هذا الاختلاف جعل الشك يتسرب في صحة هذه النتائج من ناحية ، ومن ناحية أخرى بدأ كتاب وأدباء هذا الجيل يتعلمون منهجهم في الكتابة وفي نفس الوقت يتصدون للكتابة في الإسلام بهذا المنهج . وبذلك قضوا على زعم هؤلاء المستشرقين بأنهم هم وحدهم الذين يستخدمون المنهج العلمي في كتابة التاريخ الإسلامي .

ثالثاً - كتابات المتعصبين للغرب وطنياً وجنسياً التي يظهر التعصب فيها حين يكتبون عن المسلمين العرب لأنهم إذا كتبوا عن المسلمين الهنود أو الفرس استطاعوا أن يقولوا أنهم من السلالة الآرية التي ينتمي إليها الأوربيون، واستطاعوا أن يزعموا - مثلا - أن الإسلام قد أخذ التصوف عن الفرس ، وأخذ الحكمة عن الهند، والفلسفة عن اليونان . وأن المسلمين العرب كانوا يعولون في خدمة دينهم - بل في خدمة لغتهم - على المجتهدين من سلالة الآريين ، وقد يزيد الغلو بهذه الفئة حتى تنكر دينها لأنه تبشير رسول « يهودي سامي » كما يقولون عن السيد المسيح عليه السلام ، وبعضهم ينشيء لنفسه مراسم وشعائر كالمراسم والشعائر التي يتبعها أصحاب العبادات ويتذرعون بما يدعونه من المزايا

الجنسية لتسويغ سيادتهم على الغربيين أنفسهم، لأنهم لم يحرروا عقولهم عن العبادات الشرقية أو لأنهم خالطوا الشعوب من غير السلالة الآرية الخالصة فلحقت بهم الهجنة فى الانساب وفى الأخلاق .

هذه طائفة من ذوى النيات السيئة بين كتاب الغرب . يؤلفون عن المسلمين العرب على التخصيص ومعظمهم ممن يدينون بالمذاهب الفاشية أو النازية فى السياسة والاجتماع .

رابعاً ــ كتابات طائفة يشوب كتابتها الغرض كلما تحدثت عن البلاد الإسلامية بالضبط كما يشوبها نفس الغرض كلما تحدثت عن بلد غريب يتطلع القراء الغربيون إلى سماع أخباره ، ويحبون أن توافق هذه الأخبار والأحاديث ماتخيلوه من أطواره وأعاجيبه ، وهؤلاء الكتاب يسوقون كتاباتهم إلى قراء ألف ليلة وليلة ورباعيات عمر الخيام ، ورحلات الرواد عبر القرون الوسطى وهؤلاء يحبون أن أن يسمعوا خبراً غير الذى يألفونه ويشبه ما تعودوه ، وهواهم كله إلى الأحاديث الشرقية التى تعرض لهم شرقا فى الواقع كالشرق الذى سبق أن قرأوا عنه فى أساطير الخيال . وقد رأينا بعض كتاب الغرائب فى القرن العشرين يجول بين ربوع البادية العربية فيزعم أنه نزل بضيافة شيخ فى الستين له فى مضارب الخيام حوله ثلاثون زوجة ، وله من الأبناء والبنات ماليس يحصيه ، ورأينا غيره يزعم أنه زار فى العواصم الإسلامية بيوتا لاتفتح نوافذها وأبوابها بالنهار ولا بالليل وبين جدرانها خليط من الزوجات والسرارى لايهتدين فى الطريق بغير دليل من الخصيان . ولكن هؤلاء المغربين المتخيلين بدأوا يثوبون

شيئاً فشيئاً إلى الاعتدال فى رواية أخبارهم واعاجيبهم هـــذه عن الإسلام ورجاله بعد شيوع الصور المتحركة وانتشار المناظر الشرقية على حقيقتها فيما تعرضه الشاشة البيضاء أو تعرضه الصحف السيارة . ولم تبق للمغربين المتخيلين غير زاوية واحدة يملأونها بالأعاجيب والمدهشات عن المسلمين الشرقيين وهي زاوية التاريخ والعصور التاريخية التي يعمرونها بأبطال العصور الغابرة فيما يؤلفونه عن المسلمين . من قصص البيوت والخدور .

خامساً — خلو الميدان من الكتابات الإسلامية المقنعة لسببين :

الأول : عدم وجود مفكرين أفذاذ مثل جمال الدين الافغانى باعث النهضة الفكرية فى الشرق أو محمد عبده المجدد الإسلامى أو غيرهما ممن يستطيعون الصمود أمام هذه الهجمة الضاربة والدفاع عن الإسلام بالحجة والمنطق خاصة وأن القائمين على أمر الكتابات المغرضة كانوا فى الأصل مفكرين يخدمون السياسة الغالبة على دولهم فيصطفون لغة الدعاية تارة ، ولغة الدبلوماسية تارة أخرى .

والسبب الثانى :هو فى انصراف الادباء والمفكرين فى ذلك الوقت إلى الكتابات السياسية والأدبية . فمن الناحية السياسية نجد أن هذه الفترة ـ عشرينات وثلاثينات هذا القرن ـ إجتاحتها أزمة سياسية شاملة أطاحت بالدستور وفرضت على الناس دكتاتورية الأقليات السياسية ، وعطلت الصحف ،وضيقت على الحريات . فضلا عما كانت تعانيه البلاد آنئذ من أزمة إقتصادية . فانصرف كتاب هـذه الفترة إلى السياسة وها هو الأستاذ العقاد يصل به الأمر إلى أن يقف فى

مجلس النواب عام ١٩٢٨ ليهدد رأس الملك بالسحق فيسجن تسعة أشهر .
مما يؤكد أن كتاب هذه الفترة وأدباءها شغلتهم السياسة وأحداثها .

أما من الناحية الأدبية فقد انصرف أغلب المفكرين والأدباء إلى النقد والأدب ومايدور حولهما من معارك كثيرة . . فقد كانت هذه الفترة إحياء للآداب العربية أسوة بما حدث للآداب الأوربية وهو ما عبر عنه الدكتور طه حسين فى تقديمه لكتاب فجر الإسلام وهو يبرر انصراف أغلب الأدباء والكتاب والمفكرين عن الكتابة فى الإسلام .

سادساً — اللياذ بالعقيدة الدينية خوفاً من المذاهب التى تعتبر فى ذلك الوقت خطرة . وهاهو الأستاذ العقاد يعبر عن ذلك فى مقالة له فى روز اليوسف عام ١٩٣٥ يقول فيها :

**( ان السبب العالمى الأكبر لهذه الظاهرة ـ اللياذ بالعقيدة الدينية ـ هو فشل الفلسفة المادية فى اقناع العقول وارضاء النفوس وطمأنة الضمائر بعد احتياجها العالم زهاء قرن كامل ، واعتزاز الناس بها فى غير طائل وانتظارهم منها التعليلات والتفسيرات التى تعبوا فى البحث عنها والرجوع بها الى الجامدين المتقنين وهم لايفقهون بم يجيبون ولا يستطيعون الناس أن يفقهوا ما يجهلون ) .**

**« وأما السبب الشرقى فهو اليقظة العربية واللياذ بالعقيدة التى تعيد ذكرى المجد القديم ، وتحمى أصحابها من غارات أعدائها فى فى العصر الحديث ، ففى الحجاز وفى اليمن والعراق وسوريا وغيرها من البلدان الاسلامية كالهند والجزائر الأسبوعية حديث عن الاسلام والعرب ، ورغبة دائمة فى القراءة عن تاريخ المسلمين وزعماء الاسلام ومن كان قد اطلع على طرف من العلوم العصرية فى أبناء هذه الأقطار**

**التراسية فهو يشتاق ان يرى الاسلام على هدى هذه العلوم ، وان يحكم الصلاة بين زمانه وبين ماسلف من الأزمنة » .**

ويستمر الأستاذ العقاد فى مقاله هذا إلى أن يصل إلى قوله :
« يحيط بهذه الأسباب جميعاً سبب شامل ذلك هو الفزع من الشيوعية والاعتصام منها بالعقائد الروحية التى لا تسيغ المذاهب المادية » .

سابعاً — اجتذاب فريق من المسلمين المتعلمين إلى قراءة الكتب العربية بعد انصرافهم إلى الكتب الأوربية حيث يلتمسون فيها حقيقة الإسلام إقتناعاً منهم بأنهم لن يجدوها فى كتب المسلمين بالعربية ، بعد أن تبينوا أن الزندقة — فى نظر جماعة من العلماء المسلمين — تقابل حكم العقل ونظام المنطق وأن الالحاد عندهم قرين الاجتهاد ، كما أن الإيمان قرين الجمود. فأتجهوا إلى الفلسفة وأهملوا التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها حرصاً منهم على ألا تثور بينهم وبين دعاة الجمود حرب لاثقة لهم بالانتصار فيها . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية لم يدرك بعض المتعلمين من المسلمين فى ذلك الوقت ضرورة الاتصال الروحى بين الإنسان وعوالم الكون اتصالا يرتفع بالإنسان إلى أرقى مراتب الكمال ، وتتضاعف به قوته المعنوية .
فأقتحم ميدان الكتابة فى الاسلام هؤلاء الأربعة مدركين أن عملهم هذا يفسد مايبغيه الاستعمار من تأييد للطاعنين فى الإسلام تحت إسم حرية الرأى ، وقصده فى ذلك القضاء على الروح المعنوية بإضعاف الثقة فى دين الأمة مما يضر بها . . وأى ضرر يصيب الأمة بعد انصراف متعلميها إلى كتابات عن الإسلام بأقلام غير المسلمين ؟

ثامنا ـ تحدى الحركة المحافظة ، تلك التى عادت كل ماهو جديد فى الفكر فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين .. حين كانت مصر تجتاز مرحلة المخاض العسير لولادة فكر مصرى متميز .. وهنا تمثلت قلة من ابناء مصر الموجة الغربية وبدات تعمل على تطوير الحياة المصرية يدفعها الى ذلك .. التحدى للاقلة هذه الحركة المحافظة التى اسفرت عن وجهها وهى تجتاز صحوة الموت عن جمود اتسم بالعنف فى مواجهة كتابات وافكار الشيخ محمد عبده فى دفاعه عن الاسلام ، ودعوة قاسم امين لتحرير المراة ، وفى موقفها المتعصب فى كتابى « الشعر الجاهلى » للدكتور طه حسين و « الاسلام واصول الحكم » للشيخ على عبد الرازق .

تاسعاً ـ الاستقلال عن تركيا وبريطانيا كان تدعيما لأصحاب الآراء المتحررة المعتدلة ، مثل طه حسين والعقاد وهيكل وأحمد أمين وغيرهم ممن بدأوا يعملون على إيجاد فكر يحافظ على الأصيل من القديم الموروث ؛ ويصل فى نفس الوقت إلى الجديد الأجنبى . وبمعنى آخر تناول تراثنا بأسلوب عصرى جديد ولم يكن هناك أفضل من الإسلام من ناحية الاصالة لتناوله بأسلوب عصرى جديد خاصة وأن الدين أول مايقصد بالحماية حين يخشى الناس عاقبة هــــذه الافكار الأوربية الوافدة التى ترى أن كل ما سبق من مسلمات وعقائد وأفكار يجب أن يعاد بحثه وتمحيصه على الطريقة العلمية . وتطبيق الطريقة العلمية على الدين ـــ وهو أمر له جلاله وقداسته ـــ كان بعد مغامرة خطرة ؛ إلا أنها مغامرة كانت ضرورية وحتمية برغم خطورتها .. وما دامت هى ضرورية فالأفضل أن يقوم بهذه المغامرة من يعنيهم أمر هذا الدين وهم مفكرونا وكتابنا من المسلمين قبل أن يقوم بها غيرهم من لا يمثل الدين عندهم أهمية فى قليل أو كثير .

عاشراً ـ رغبة الكتاب والأدباء فى ايجاد وسيلة لربط حاضر الأمة بماضيها .. وفكروا فى ذلك كثيراً .. فاتجهوا الى الفرعونية يلتمسون فيها الامتداد الى الحاضر .. فلما لم يجدوا ذلك ممكناً .. اقتنعوا بان الاسلام هو الأفضل من ناحية الامتداد الى الحاضر ومما يؤكد هذا الراى قول الدكتور هيكل فى مقدمة كتاب «حياة محمد»: « خيل الى كما خيل الى اصحابى ان نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا الى هذا النهوض ، ولكن ما فى الغرب غير صالح لأن ننقله فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافة الغرب » .

ويمضى الدكتور هيكل فى سرد مابين الحياتين المصرية والأوربية من فروق ثم يقول : « والتمست التمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلا لوحى هذا العصر . ينشىء فيه نشأة جديدة فإذا الزمن ، وإذا الركود العقلى قد قطعا ، مابيننا وبين ذلك العهد من سبب قد لا يصلح بذرا لنهضة جديدة فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو ... » .

ولهذا كانت محاولات هيكل وأصحابه فى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى حتى يتم ربط حاضر الأمة بماضيها .

حادى عشر ـــ يحيط بهذه الأسباب والعوامل .. عامل شخصى يتصل بالوراثة وظروف النشأة فى أوساط إجتماعية تحترم الدين .. فالأربعة يهتمون عند كتابة مذكراتهم الخاصة بأن يشيروا فى شىء من الاعتزاز بأنهم حفظوا القرآن فى طفولتهم .. كما حدثنا الدكتور طه فى « الأيام » والدكتور هيكل فى كتابه « مذكرات فى السياسة » والدكتور أحمد أمين فى « حياتى » والأستاذ العقاد فى كتابه « أنا » ـ

وهذا يعنى أن للوراثة وظروف النشأة دخلا كبيرا فى هذه الاهتمامات بعد ذلك . وهذا ما يجلوه ويعبر عنه صراحة الأستاذ العقاد فى مقدمته لكتاب « فاطمة الزهراء » حيث يقول :

« ترد الاشارة الى الوراثة فى مواضع شتى من هذه الصفحات التالية . ونعول عليها فى مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية .

وأرانى أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسى وبأثر الوراثة فى كتابة هـذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات فى الموضوعات الإسلامية ... »

ويمضى الأستاذ العقاد فى مقدمته هذه موضحا ومؤكدا فى نفس الوقت أن للوراثة وظروف النشأة أثرا فيما قدم بعد ذلك من الكتابة فى الإسلام .

ثانى عشر — تصادف وجود هذا الجيل .. الذى يمثل بعض أفراد معالم فكرنا العربى .. فقد وجد فى وقت واحد الدكتور طه حسين والأستاذ عباس محمود العقاد والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور أحمد أمين وغيرهم ممن تشبعوا بالحضارة الغربية سواء فى مهدها كما حدث للدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل حين سافرا إلى باريس الأول لدراسة الفلسفة والثانى لدراسة الحقوق ، أو بالاطلاع على هذه الحضارة من خـــلال الكتب الوافدة كالأستاذ العقاد والدكتور أحمد أمين .

ووجود الأربعة جنبا إلى جنب فى عصر واحد ضمن للتجربة أكبر قدر من النجاح .. نعنى بالتجربة إعادة كتابة التاريخ الإسلامى وفقا

المناهج العلمية الحديثة . فالأربعة كان يجمعهم — على الرغم من الخصومات التى كانت بينهم — أسلوب عمل واحد هو التجديد المبنى على الأسلوب العلمى . وهذا فى حد ذاته كان يعصمهم من هجمات دعاة الجمود وأنصاره .

* * *

لهذه الأسباب وغيرها فكر الأربعة تفكيرا جديا فى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى مستخدمين الأدوات الغربية فى البحث .

وكانت الخطوة الأولى تقريبا فى هذا المشروع عندما اتفق الدكتور طه حسين مع الدكتور أحمد أمين والأستاذ عبد الحميد العبادى على كتابة التاريخ الإسلامى من فجر الإسلام حتى آخر عصر الدولة الأموية. بحيث يختص كل منهم بجانب من هـــذا البحث فاختص الدكتور طه حسين بالحياة الأدبية فى الإسلام والدكتور أحمد أمين بالحياة العقلية والأستاذ عبد الحميد العبادى بالحياة السياسية .

وفى نفس الفترة تقريباً بدأ تفكير الدكتور محمد حسين هيكل يتجه للكتابة فى الإسلام وها هو يشير إلى ذلك فى كتابه « حياة محمد » فيقول : « كان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفى منها أن دفعنى للتفكير فى مقاومتها بالطريقة المثلى التى توجب على أن أبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه بحثا علميا ، وأن أعرضه على الناس عرضا يشترك فى تقديره الجميع . . . » .

ثم يقول أنه سأل عن كتب أوربية كتبت عن حياة صاحب الرسالة فذكر أحدهم كتاب المفكر الفرنسى « أميل درمنجم » عن « حياة محمد »

ولم ألبث أن اقتنيته وعكفت على مطالعته حتى فرغت منه ثم بدأت أنشر عنه بحثا في السياسة الأسبوعية . فلما ظهر العدد الأول عام ١٩٣٢ تخاطفه الناس تخاطفا حتى لقد طلب الباعة ضعف العدد الذي طبعناه فشجعني ذلك على المضي في بحثي وعلى الاستزادة منها . .

ويظل الدكتور هيكل في متابعته للبحث عن صاحب الرسالة ثلاث سنوات بعدها يصدر كتابه « حياة محمد » وتتوالى مؤلفاته الإسلامية .

وها هو عملاق الفكر العربي ، وصاحب العدد الأكبر من الكتب الإسلامية الأستاذ عباس محمود العقاد محدثا عن اللحظة التي بدأ فيها في التفكير للإسلام .. فيذكر أنه بعد وقعة حدثت أثناء مناقشة قامت بينه وبين عدد من أصدقائه لما كتبه « توماس كارليل » عن النبي في كتابه « الأبطال » وكيف أن أحدهم تطاول بالحديث على شخص النبي الكريم فأساء إلى مشاعر الحاضرين الأمر الذي جعلهم يجبرونه على الخروج من مجلسهم . أعقب ذلك حديث بين الأصدقاء ننقله من كتاب « عبقرية محمد » والحديث هو :

« ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل النبي وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه، ولا يعرف الاسلام كما نعرفه . ثم سألني - الحديث للعقاد - بعض الأخوان : ما بالك انت يا فلان لا تضع للقراء العربية كتاب عن محمد على النمط الحديث ؟ » قلت افعل وارجو ان يتم ذلك في وقت قريب » .

وبالفعل بر الأستاذ العقاد بوعده .. فكانت بداية الاربعينات بداية لهذا السيل ـ الذى لم ينقطع حتى وفاته ـ من الكتابات الإسلامية الجادة .

* * *

**وهكذا نرى انه كانت هناك دوافع واسباب لاتجاه كتابنا الاربعة ( طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، واحمد امين ، الأستاذ العقاد ) الى الكتابة عن الاسلام .**

# الفصل الثانى

## إسلاميات طه حسين

باسلامياته استطاع الدكتور طه حسين أن يقدم نفسه على أنه هذا المزيج القوى بين حضارتين مختلفتين: « حضارة الشرق » و « حضارة الغرب » ، وانه الصمارة الطيبة بين معهدين مختلفين أيضاً : « الأزهر الشريف » و « جامعة باريس » واستطاع ان يؤكد للناس أن أصوله مابرحت راسخة فى حضارة الاسلام تستخلص منها عناصر غذاء لاغنى للناس عنه .

لم يكن الدكتور طه حسين اول من قدم للمكتبة العربية كتابة في الاسلام فقد سبقه الى ذلك الدكتور احمد امين حين قدم كتابه الاول « فجر الاسلام » عام ١٩٢٨ بينما هو قدم كتابه الأول « على هامش السيرة » عام ١٩٣٣ ، ولم يكن الدكتور طه حسين صاحب العدد الضخم من المؤلفات الاسلامية بين اصحاب الاسلاميات فقد فاقه في ذلك الاستاذ عباس محمود العقاد الذى اقتربت مؤلفاته الاسلامية من الثلاثين مؤلفا بينما نجد عدد كتب الدكتور طه حسين في الفكر الاسلامي لاتزيد عن الثمانية ، كذلك لم يكن الدكتور طه حسين متميزاً باستخدامه الأدب في تناول التاريخ الاسلامي فالأربعة في الأصل كانوا ادباء وكان لذلك اثر في كتاباتهم للتاريخ »

وعلى الرغم من هذا كله .. إلا أنه حين يذكر من كتبوا فى الإسلام ويؤرخ لهم نجد إسم الدكتور طه حسين فى المقدمة ، ولا عجب فى ذلك فللدكتور طه حسين فضل كبير فى مشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامى شبيه بفضله فى بقية جوانب حياتنا الثقافية والاجتماعية .

وفضل الدكتور طه حسين فى كتابة تاريخ الإسلام يرجع إلى ذلك اليوم الذى دعا فيه صديقيه الدكتور أحمد أمين ، والأستاذ عبدالحميد العبادى إلى أن يقوم الثلاثة بكتابة الحياة الإسلامية ، كل يتناول منها جانباً على ما رأينا فيما سبق من حديث .

ومن هنا .. من مبادرته هذه ، ومواصلته فى الكتابة الإسلامية ذات الطابع المميز .. كان اسم الدكتور طه حسين يقفز فى المقدمة عند الحديث عن أصحاب الإسلاميات .

والدكتور طه حسين حين أراد الاسهام مع صاحبيه الدكتور

بأحمد أمين وعبد الحميد العبادى فى كتابة التاريخ الإسلامى إختار لنفسه جانبا يجيده ويتقنه وهو جانب الحياة الأدبية فى الإسلام .

وإذا كان الدكتور طه حسين لم يحدد المنهج فى تناوله للمادة التاريخية على عادة مايفعل المؤرخون فى كتاباتهم فلابد من القيام بعملية استنباط لهذا المنهج من كتاباته ومما كتب عنه من دراسات .

كلنا نعرف أن شخصية الدكتور طه حسين تميزت منذ البداية بسمتين واضحتين ، فهو أديب فنان إلى جانب أنه ناقد حساس . ومعنى هذا أن شخصيته تجمع فنية الأدب ، وحساسية النقد .

ولما كان التاريخ حسب التعريف القديم الصحيح هو فى مجموعه علم من العلوم أو بالأحرى نوع من النقد والفن . فمن الواضح أن جانبا كبيراً لا يستهان به من إنتاج الدكتور طه حسين الأدبى العظيم يدخل فى نطاق التاريخ .

والحق أن ما كتبه الدكتور طه حسين أيام شبابه عن الشعر العربى الجاهلى أو الإسلامى ، وعن بلاد اليونان القديمةفى مظاهرها الاجتماعية والأدبيةوالدينية ،أوما كتبه بعد أن بلغ سن النضوج وخصصه لأصول الأدب العربى القديم وتطوره وما كتبه عن مشاكل التعليم والثقافة فى العالم العربى المعاصر يعتبر فى جوهره نوعا من التاريخ .

حتى ماجادت به قريحته من إبداع فى ذكرياته الحيمة والتى تضمنتها أجزاء كتاب الأيام تعتبر نوعا من التاريخ برغم أن إبداعه الفنى فى كتابتها يجعل القارىء ينسى أنه يقرأ صفحات من التاريخ .

والدكتور طه حسين إختار جانب الحياة الأدبية فى الإسلام ، وهو الجانب الذى يجيده ويتقنه ، ولكنه برغم هذا كان مؤرخاً حين تناول بالدراسة السيرة النبوية فى كتاب « على هامش السيرة » وكان مؤرخا فى ترجمته للخلفاء الراشدين الأربعة « أبو بكر وعمر وعثمان وعلى » ، وكان مؤرخا أيضاً حين تناول بالدراسة المجتمع الإسلامى بعد الرسول فى كل من « مرآة الإسلام » و « الوعد الحق » .

وإذا توصلنا إلى أن الدكتور طه حسين مؤرخ فلا يبقى أمامنا إلا البحث فى تفاصيل أسلوبه ومنهجه كمؤرخ . فهو حين إختار الحياة الأدبية فى الإسلام فمعنى هذا أنه يريد أن ينظر إلى التاريخ الإسلامى نظرة الأديب الفنان الذى تجذبه وتؤثر فيه الصورة الجميلة . ولعل هذا ما أراد قوله صراحة حين قدم الجزء الأول من هذه الإسلاميات وهو كتاب « على هامش السيرة » حيث يقول :

« الى هذا النحو من احياء الأدب القديم ، ومن احياء ذكر العرب الأولين ، قصدت حين امليت فصول هذا الكتاب ولست اريد ان اخدع القراء عن نفسى ولا عن هذا الكتاب ! فانى لم افكر فيه تفكيراً ، ولا قدرته تقديراً ، ولاتعمدت تاليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون ، انما دفعت الى ذلك دفعا ، اكرهت عليه اكراها ، ورأيتنى اقرا السيرة فتمتلىء بها نفسى ويفيض بها قلبى ، وينطلق بها لسانى ، واذا انا املى هذه الفصول وفصولا أخرى ارجو ان تنشر بعد حين .

فليس فى هذا الكتاب اذا تكلف ولا تصنع ، ولا محاولة للاجادة ولا اجتناب التعقيد ، وانما هى صورة لسيرة طبيعية صادقة لبعض ما اجد من الشعور حين اقرا هذه الكتب التى لا اعدل بها كتبا

**الجرى مهما تكن ، والتى لا امل قراءتها والأنس اليها ، والتى لاينقضى حبي لها واعجابى بها ، وحرصى على ان يقراها الناس .. »**

بهذه العبارة يحدد الدكتور طه حسين ـ ضمنيا منهجه فى البحث التاريخى . فمن يقرأه يدرك على الفور أنه أمام أديب مؤرخ . . يحس فيصور بما يحس صورة ، هى من جوهر التاريخ لامن تفصيله ،وهى لب ما فى التاريخ الذى نحب أن نتمثله جميعاً ليكون لنا فيه جميعاً الصورة المشتركة ، أما مابعد ذلك مما تزخر به كتب التاريخ العامة فهو للخاصة ولمن أراد مزيداً من علم ومزيداً من رأى .

والدكتور طه حسين كفنان مؤرخ لديه مقياس يقف بتاريخ الأدب ودراساته بين العلم والفن ، بحيث لايغرق مؤرخ الأدب فى العلم اغراقا من شأنه أن يصيب بحوثه التاريخية الأدبية بالجفاف .

وبحيث لايغرق فى الفن إغراقا من شأنه أن يفنى الشخصيات فى ذاته وشخصيته . بل هو يتخذ فى تناوله المادة الإسلامية طريقاً وسطا بين العلم والفن ، بين التاريخ والأدب . طريقاً تتفق فيه علوم اللغة والصرف والنحو والبيان والتاريخ ومناهج البحث الأدبى فى استكشاف الظواهر وحقائق النصوص الأدبية . مع ما ينبغى له من الحس الدقيق المرهف ، والذوق المهذب المصفى . بحيث تتجلى شخصيته فيما ينشر من أحكام وآراء ، وفيما يصور من مواطن الجمال الفنى فى الآثار الأدبية والتاريخية المختلفة .

وعلى هذا الأساس وضع د. طه حسين لنفسه ، ولمدرسته التى أخذ

طلابها ينشئون على مثاله، الأصول التي ينبغي أن تبدو عليها دراساتهم وهي أصول ترد إلى جانبين :

١ - جانب علمي يتصل بفحص المادة التاريخية وتحقيقها واستنباط دلالتها مع دقة التفسير والتعليل والتحليل، ومعرفة الظروف التي أحاطت بها والمؤثرات المختلفة التي أثرت في منشئها وبيان الصلات بينهم وبين محيطهم وبيئاتهم وعصورهم .

٢ - جانب فني يتصل بنقد هذه المادة التاريخية وتصوير شخصيات أصحابها ، وما تحدث في نفس قارئها من لذة . وهو الجانب الذي يحيل التاريخ إلى عمل أدبي ممتع يلذ العقل والشعور إذ نرى من خلاله خصائص المؤرخ التسجيلي فشخصيته كأديب تبدو من خلال كتاباته للتاريخ حين ينفث فيه من روحه ونظرته وفكرته ، ويجمله بأسلوبه ، ويلتقط جوانب يطويها سرد المؤرخ التسجيلي .

وإلى جانب فحص المادة التاريخية ثم نقدها تبدأ عملية صياغتها من جديد وهو حين يقوم بصياغة مادته يستخدم المنهج الاجتماعي ، وخاصة اذا كانت هذه المادة التاريخية حول أشخاص .

ونستطيع أن نستدل على منهج الدكتور طه حسين من عبارته هذه التي كانت ضمن ما كتبه لتقديم « قادة الفكر » فهو يقول : « الفرد ظاهرة اجتماعية ، وليس من البحث القيم العلمي في شيء أن تجعل الفرد كل شيء وتمحو الجماعة التي أنشأته وكونته محواً ، إنما السبيل أن تقدر الجماعة ، وأن تقدر الفرد ، وأن تجتهد ما استطعت في تحديد الصلة

بينهما وفى تعيين ما تطلبهما من أثر فى الآداب والآراء الفلسفية والنظم الاجتماعية والسياسية المختلفة . . . » .

بهذا المنهج الذى بشر به الدكتور طه حسين عام ١٩٢٥ درس الأدب العربى وأعاد تقييمه من جديد ، ثم درس المجتمع الإسلامى ورجاله . فقدم لنا « على هامش السيرة » فى ثلاثة أجزاء ، « الفتنة الكبرى » فى جزئين ، « الشيخان » و « الوعد الحق » و « مرآة الإسلام » .

## على هامش السيرة

حين شرع الدكتور طه حسين فى التاريخ لحياة الإسلام الأدبية كان هدفه الأول هو تنقية المادة الاسلامية مما يتداخل معها من المواد الأخرى من العلوم والفنون، وتبسيط هذه المادة بالقدر الذى لا يفقدها معناها ، وأخيراً تسهيل وصولها الى متناول الأيدى بدلا من خزنها فى المكتبات ، لذلك نراه يقدم كتابه الأول « على هامش السيرة » بقوله : « هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين. لأنى لم أرد بها الى العلم ، ولم أقصد بها الى التاريخ . وإنما هى صورة عرضت لى أثناء قراءتى للسيرة فأثبتها مسرعا ، ثم لم أر بنشرها بأسا. ولعل رأيت فى نشرها شيئا من الخير ، فهى ترد على الناس أطرافا من الأدب القديم قد أفلتت منهم وامتنعت عليهم، فليس يقرؤها منهم الا أولئك الذين أتيحت لهم ثقافة عميقة فى الأدب العربى القديم وانك لتلتمس الذين يقرأون ما كتب القدماء فى السيرة وحديث العرب قبل الاسلام فلا تكاد تظفر بهم » .

فالغرض إذن من كتابة الدكتور طه حسين للسيرة هو أن يقرب هذه السيرة من خلال الأسلوب المبسط من الناس بعد أن باعدته

الأساليب المعقدة بين السيرة والناس . والدكتور طه حسين لا يشك لحظة فى قيمة ما سيقدمه من عمل بعد أن اكتشف أن الذين يقرأون السيرة من القلة بحيث يعد الإنسان نفسه ظافرا لو وجدهم فى هذا الزمان الذى يقرأ فيه الناس لمعاصرين تشيع البساطة والسهولة فى كتاباتهم . يقول الدكتور فى نفس المصدر : « إنما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون فى الأدب الحديث بلغتهم أو بلغة أجنبية من هذه اللغات المنتشرة فى الشرق ، يجدون فى قراءة هذا الأدب من اليسر والسهولة ، ومن اللذة والمتاع ، ما يغريهم به ويرغبهم فيه » .

وتلك رسالة الدكتور طه حسين وزملائه عندما شرعوا يكتبون الحياة الإسلامية فى جوانبها الثلاثة . . أن يقدموا هذه الحياة الإسلامية بأسلوب جديد ، ونظرة عصرية تتفق مع سمات هذا العصر ، حتى يستطيعوا جذب أكبر عدد من المثقفين إلى القراءة . . وخاصة تلك القراءة التى تهتم بالإسلام دينا ودولة ورجالا . كانت مهمته أن يغربل هذه المادة الموجودة فى بطون الكتب والمتون والأسانيد وتقديمها بعد ذلك فى أسلوب جديد يقرأه الجميع من الشباب وغير الشباب . وإن كان الدكتور طه حسين قد خص بالاهتمام الشباب على اعتبار أنهم الأمل المرتقب للبلاد حيث قال فى معرض الحديث عن كتاب « على هامش السيرة » . فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحيى إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة ، وكتب الأدب العربى عامة ، والتماس المتاع الفنى فى صحفها المتصبة فأنا سعيد حقاً ، موفق حقا لأحب الأشياء إلى ، وآثرها عندى . . . » .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلقى فى نفوس الشباب حب الحياة العربية الأولى ويلفتهم إلى أن فى سذاجتها ويسرها جمالا ليس أقل روعة ولا نفاذا إلى القلوب من هذا الجمال الذى يجدونه فى الحياة الحديثة فالدكتور طه حسين سعيد موفق لبعض ما أراد .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى واتخاذها موضوعا قيما خصبا لا للإنتاج العلمى فى التاريخ والأدب الوصفى وحدهما بل كذلك للإنتاج فى الأدب الإنشائى الخالص فهو سعيد موفق لبعض ما أراد .

**واذا استطاع كتاب على هامش السيرة ان يلقى فى نفوس الشباب ان القديم لاينبغى ان يهجر لأنه قديم ، وان الجديد لاينبغى ان يطلب لانه جديد ، واذا يهجر القديم اذا برىء من النفع وخلا من الفائدة ، فان كان نافعا مفيدا فليس الناس اقل حاجة اليه منهم الى الجديد فالدكتور طه حسين سعيد ايضا وموفق ايضا لما اراد .**

وفى إعتقاد الدكتور طه حسين أنه لو قرب إلى الناس فهم تاريخهم الإسلامى يكون قد أفاد وأثمر ويكون بالفعل قد أحيا الأدب القديم .

وينوه الدكتور طه إلى أن أدبنا القديم يكفل للناس قدرة على الوحى ، وقدرة على الإلهام . ونفس الشىء فى السيرة فقد ألهمت الكتاب والشعراء فى أكثر العصور الإسلامية ، فصوروها صورا مختلفة متفاوتة . وهو لذلك يمهد لاستخدام الخيال فى سرد بعض الأحداث راجيا ألا يتضايق دعاة العقل .

ونمضى مع الأحداث على لسان الدكتور طه حسين التى يستند بعض أحاديثه عنها على التاريخ وينسج الخيال أكثر مافيها . فهى كما يقول

الدكتور طه حسين ليست كتابا فى السيرة وإنما هى أثر من آثار قراءة السيرة كما تلقتها روح طه حسين المبدعة وتصورت فى خياله الخصب المثقف .

وتدور أحـــداث « على هامش السيرة » ما بين اليونان والشام والعراق وفارس واليمن والجزيرة العربية ومصر والحبشة ومعها يمضى ميلاد عظيم يتأهب له العالم ويسعى لرؤيته واستقباله ونيل الخلاص على يديه . وسوف نرى شبانا يونانيين وثنيين ما زالوا يلفظون سرا بوثنيتهم الآفلة بعد أن انتشرت المسيحية فى بلادهم وأصبحت دين القيصر والدولة وعامة الناس ، وسوف نرى شبانا مسيحيين يخرجون من بلادهم بحثا عن الدين الجديد يلتمسونه فيما حولهم من بلاد وثقافات ومنها هذه البلاد الصحراوية البعيدة التى لا يعرف سلطان القيصر طريقه إليها ، فيصل بعضهم ويموت آخرون دون الغاية ، وسوف نجد مثلهم شبانا عربا وثنيين يخرجون من بلادهم إلى الشام وبيزنطة من أجل هذه الغاية نفسها فيصبح بعضهم نصارى بيزنطيين ويعود بعضهم إلى الوطن يبشرون بشىء من المسيحية حتى يقدر لهم أن يشهدوا الحق فى ميلاده العظيم .

ربما التقينا مرة أخرى دون أن ندرى ونحن نتجول فى ربوع الشام والعراق بذلك الفتى الفارسى عبدا كهلا فى يثرب ، وكان قبل استرقاقه شابا تقيا عرف النصرانية فتنصر وخرج من أصفهان إلى العراق والشام طلبا لليقين فإذا هو يتنقل بين الكنائس والأديرة والصوامع فيتتلمذ على أيدى قسس ورهبان يدلونه على مطلع النور فى جزيرة

العرب فيشد رحاله إليها مع تجار يغدرون به فى الطريق ويبيعونه ليهودى من بنى قريظة فى يثرب فيستعبد بها ويظل حتى يأتى محمد مهاجرا فيصبح من أقرب صحابته . وسوف نرى تاجرا اسكندرانيا ينتهز فرصة غضب القيصر لما لقيه مسيحيو نجران فى اليمن فى اضطهاد الملك اليهودى « ذى نواس » فيجهز أسطولا ليبحر به جنود النجاشى المسيحى حليف القيصر البيزنطى الى اليمن حتى يثأروا لإخوانهم فى الدين ويفتحوا الطريق لتجارة الروم الى قلب الجزيرة العربية ، ويصل الى اليمن ويصحب جيش أبرهة الى مكة ليهدم الكعبة وهناك يرى مالم يكن يتصور ، يرى الطير الأبابيل وهى تمطر الجيش بحجارة من سجيل فتجعله كعصف مأكول ، عندئذ يعلم أن لهذا البيت شأنا ويترك تجارته ويتخلى عن ثروته ويدخل ديرا فى أطراف الشام على طريق مكة منتظرا ما سوف يكون من الأمر العظيم فى بلاد العرب ولم يكن يعلم بالطبع أن حدثا خطيرا قد وقع وهو فى مكة يشهد اندحار جيش أبرهة وأن صاحب الرسالة التى ينتظرها العالم قد ولد فى نفس العام ، عام الفيل ، وسوف نستمع الى حديث « البناء » القبطى الذى شارك فى بناء الكعبة حين أعيد بناؤها على عهد محمد كما شارك فى البناء محمد نفسه حين وضع بيده الحجر الأسود فى مكانه بالكعبة كما سنرى ونسمع كثيرين ممن عاصروا ميلاد الحق العظيم أو جاءوا قبله بقليل أو بعده بقليل ، وسنرى النبى الكريم منذ أن كان يتيما تعطف عليه أكرم الحواضن الى أن كان راعيا للغنم ، الى أن صدع بأمر الدعوة الإسلامية فلقى فيها عداوة المعادين وحسد الحاسدين ، وسنرى كيف أن النبى لا يلقى المعادين بما

يكرهون ، ويدعوهم الى كلمة الحق ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وحين يقدم المجتمع العربى القديم فى الحجاز قبيل الدعوة المحمدية وفى أثنائها ، والصراع بين الحق والباطل ، والحرب بين الصلاح والفساد حتى يتم على يدى صاحب السيرة النصر ودخول الناس فى دين الله أفواجا .

والدكتور طه حسين يروى لنا كل ذلك فى أحاديث منفصلة بتباعد المدن والسنوات حتى تتجمع فى النهاية خيوط أحاديثه وشخصياته فى مكة أو فى يثرب أو فى غيرهما من المدن والبلاد التى شهدت ظهور الرسالة الجديدة أو كان لها شأن فى تاريخها .

## الفتنة الكبرى

**حين تصدى الدكتور طه حسين للكتابة عن الفتنة الكبرى . . أول فتنة فى الاسلام تلك التى انقسمت الدولة الاسلامية بعدها وظلت منقسمة حتى الآن . . عندما تصدى للكتابة عنها كان يعلم جيداً ان ادق فترة فى التاريخ الاسلامى هى تلك الفترة التى تلت مقتل عثمان ابن عفان . ففيها انتهكت الحرمات ، وقضى فيها على سنة الخلافة الراشدة .**

**والباحث فى قصة الفتنة الكبرى يقابل الكثير من الصعوبات والعراقيل لاختلاف وجهات النظر التى تناولت هذا الموضوع بالذات .**

فللمؤرخين القدامى والمعاصرين آراء متباينة فى هذه الفتنة الكبرى .

منهم مثلا من يستبد به الهوى لآل البيت وللامام على فيناصره ويتعاطف معه ويكون ذلك على حساب المنهج العلمى الذى يتطلب من البحث دقة وموضوعية .

ومنهم من ينحاز إلى معاوية فينجي باللائمة على الإمام علي لتخليه عن سياسة الفتح وانشغاله بحروب داخلية في صف المسلمين وفتحه الباب لكي تدخل الضغائن والأحقاد والثورات في قلب الدولة الإسلامية الفتية.

وولج الدكتور طه حسين هذا الميدان فكان المؤرخ المنصف الذي يعرض الأحداث مجردة عن كل عصبية أو هوى فقدم للقارىء مادة وافية دقيقة موضوعية عن تاريخ هذه الفترة بشتى ملابساتها .. فهو حين يحدثنا عن شخصية عثمان رضي الله عنه أو علي كرم الله وجهه لا يكتفي بأن يقدمهما كخليفتين للمسلمين دون دراسة الوسط الاجتماعي الذي أدى الى ما حـــدث في عهد كل منهما ، والذي انتهى بمقتلهما في النهاية .

ومنذ البداية نلاحظ أن الدكتور طه حسين لايتقيد بالترتيب الزمني في تاريخه للإسلام ولهذا نجده يعقب السيرة بكتابه « الفتنة الكبرى » في عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما . مع أنه كان ينبغي أن يعقبها بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن الخليفتين اللذين حدث في عهدهما انقسام الإمبراطورية الإسلامية انقساما ما زال ماثلا حتى اليوم ، واللذين ورثا عن سلفيهما أبي بكر وعمر أكبر امبراطورية في التاريخ ويحدثنا عن أكبر موقف محرج واجه خليفة لرسول الله وذلك حين قتل ابن عمر ثلاثة انتقاما لمقتل أبيه عمر بن الخطاب . والموقف المحرج هو هل يقر الخليفة عثمان بن عفان هذا التصرف فيبيح دم المسلم أم

لا يقرره فيقتص من ابن أمير المؤمنين المقتول ؟ ولا يجد عثمان خيرا من دفع دية من ماله الخاص حقنا للدماء .

ثم يحدثنا حديثا مستفيضا عن نظام الحكم فى الدولة الإسلامية والذى اسماه « بالنظام العربى المبتكر » وهو لم يكن بحال من الأحوال « ثيوقراطيا » ولا « ديمقراطيا » ولا « فرديا » ولا « ملكيا » أو قيصريا .

كذلك يحدثنا عن أول فتنة فى الإسلام وأول معارضة ، وعن مقتل عثمان رضى الله عنه ، ويقرر أن مقتل عثمان كان جريمة ، وكان فتنة كبرى بين المسلمين اختصم لها فريق وانتصر لها فريق ونتج من هذه الخصومة مالا يزال يفرق شمل المسلمين الى يومنا هذا .

وكانت هذه الفتنة الكبرى فى رأى الدكتور طه حسين أمرا لامفر منه سواء أكان الخليفة عثمان أو غير عثمان . لأنها لم تكن مسألة عثمان رضى الله عنه ، وانما كانت مسألة العدل الاجتماعى بين الرعية التى يتولى الرعاة أمرها .

**ان الجزء الأول من الفتنة الكبرى وهو الخاص بعثمان بن عفان ليس تاريخا لولاية عثمان او مقتله بقدر ماهو دراسة لنظام الحكم الاسلامي وعناصره وبيان لاستغلال النفوذ الذى حاربه الخليفة عمر ابن الخطاب . فهى اذن ليست صورة لفرد وانما هى صورة متكاملة للعوامل والتيارات التى كان يموج بها عصر الخليفة الشهيد . وهذا هو ما يعنيه الدكتور طه حسين من تطبيقه منهجه الإجتماعى فى الكتابة الاسلامية .**

**ويعقب مقتل عثمان والمصحف بين يديه والثوار فى داخل الدار وخارجها صورة رائعة .. والصورة لاتحفل كثيرا بعلى كرم الله وجهه ..**

**لا تحفل به كرجل الساعة ... وانما تهتم هذه الصورة بأمر المسلمين بعد هذه المحنة .**

وكيف أن هؤلاء المسلمين يواجهون مشكلة الخلافة من ناحية ، ومشكلة استقرار نظام الحكم من ناحية أخرى وهو حين يحدثنا عن هاتين المشكلتين يقول : « واجه المسلمون إثر قتل عثمان رحمه الله مشكلتين من أخطر ما عرض لهم من المشكلات منذ خلافة أبى بكر » إحداهما تتصل بالخلافة نفسها والثانية تتصل بإقرار نظام الحكم فقد أمسى المسلمون يوم قتل عثمان وليس لهم إمام يدبر لهم أمورهم ويحفظ عليهم نظامهم وينفذ فيهم سلطانهم ويقيم فيهم حدود الله ويرعى بعد هذا كله أمور هذه الدولة الضخمة التى أقامها أبو بكر وعمر ، وزادها عثمان سعة فى الشرق والغرب . فهذه البلاد التى فتحت عليهم ولم يستقر فيها سلطانهم بعد أن كانت فى حاجة الى من يضبط أمرها ويحكم نظامها ويبعد حدودها التى لم تكن تثبت الا لتتغير لاتصال الفتح منذ نهض أبو بكر بالأمر الى أن كانت الفتنة وشغل المسلمون بها أو شغل فريق من المسلمين بها عن الفتوح » .

ولا شك أن مقتل عثمان بن عفان قد اعتبر صدعا فى جسم الأمة الإسلامية والمشكلة هى كيف يرأب هـــذا الصدع بما يحقق للمسلمين وحدتهم واتفاق كلمتهم ؟ هذه هى المشكلة الحقة . وهى أول ما يقابل على بن أبى طالب كرم الله وجهه بعد توليه الخلافة حتى أن المسلمين لم يستقبلوا خلافة على بمثل ما استقبلوا به خلافة عثمان من رضى النفوس وابتهاج القلوب واطمئنان الضمائر واتساع الأمل وانبساط الرجاء وانما استقبلوا خلافته فى كثير من الوجوم والقلق والإشفاق واضطراب

النفوس واختلاط الأمور ، لا لأن عليا كرم الله وجهه كان خليقا أن يثير فى نفوسهم وقلوبهم شيئا من هذا بل لأن ظروف حياتهم قد اضطرتهم الى هذا كله اضطرارا .

وعميد الأدب العربى يصور لنا موقف المسلمين غداة تولية على بن أبى طالب الخلافة تصويرا جيلا مدعما بالأسباب المقنعة فيقول :

« ليس غريبا اذن ان يستقبل المسلمون خلافة على ووجوههم عابسة وقلوبهم خائفة ونفوسهم قلقة ، ويزيد فى هذا العبوس والخوف والقلق أن الثائرين الذين قتلوا عثمان كانوا ما يزالون مقيمين بالمدينة متسلطين عليها . حتى كان الخليفة الجديد ومن بايعه من المهاجرين والأنصار لم يكونوا فى أيديهم الا اسارى وآية ذلك ان الخليفة لم يستطع ان يمضى فى تحقيق ما اصاب عثمان وما أصاب المسلمين من كارثة الفتنة لأنه لم يجد القدرة على هذا التحقيق وكان المسلمون من أهل المدينة يعرفون مكان العمال الذين امرهم عثمان على الأمصار، ويقدرون انهم جميعا او ان بعضهم على الأقل سينكرون الخلافة الجديدة ويجادلون الخليفة فى سلطانه .. غضبا لعثمان الذى ولاهم ، وكانوا يخافون من هؤلاء العمال بنوع خاص معاوية بن أبى سفيان عامل عثمان على الشام » .

وتمر الأحداث حادة مثيرة ، فالخلافات مستمرة بين على وخصومه وأولهم معاوية بن أبى سفيان ذلك الذى قدر الناس أنه لن تستقيم بينهما الأمور فى يسر ولين وتكون النهاية الحزينة بمقتل رابع الخلفاء الراشدين كما قتل ثالثهم من قبل وتنتهى الخلافة الراشدة وتنتهى هذه الفتنة التى شبت نارها فى المدينة سنة خمس وثلاثين بقتل عثمان بن عفان إلى هذه المرحلة من مراحلها بعد أن اتصلت ثلاثين عاما وبعد أن أثارت من الخطوب الجسام وبعد أن سفك فيها ماسفك من الدماء

وأزهق فيها ما أزهق من النفوس وانتهك فيها ما انتهك من الحرمات وقضى فيها على سنة الخلافة الراشدة ، وتفرق فيها المسلمون شيعا وأحزابا ، وأسس فيها ملك عنيف لا يقوم على الدين وإنما يقوم على السياسة والمنفعة ، وكان يظن حين استقام أمر هذا الملك لمؤسسه عشرين عاما انه سيمضى فى طريقه وادعا مطمئنا مستقرا فى بنى سفيان دهرا على أقل تقدير ولكنه لم يستقر فيه إلا ريثما تحول عنه .

ثم لم يتحول عنهم فى يسر ولين لأن الفتنة لم تنقض بموت يزيد وإنما قطعت مرحلة من مراحلها ثم استأنفت عنفها وشدتها بعد موت يزيد ، فعرضت المسلمين ودولتهم لخطوب ليست أقل جسامة من الخطوب التى حدثت قبل ذلك .

وقد أصبح للمسلمين مثل بعينه من هذه المثل العليا الكثيرة التى دعا اليها الإسلام وجعلت الفتنة تدور حول هذا المثل الأعلى لتبلغه فلا تظفر بشىء مما تريد . وانما تسفك الدماء وتزهق النفوس وتنتهك المحارم وتفسد على الناس أمور دينهم ودنياهم وهذا المثل الأعلى هو العدل الذى يملأ الأرض وينشر فيها السلام والعافية ، والذى تقطعت من أجله أعناق المسلمين قرونا متصلة دون أن يبلغوا منه شيئا حتى استيأس من قربه بعض الشيعة ولم يستيئسوا من وقوعه فاعتقدوا أن إماما من أئمتهم سيأتى فى يوم من الأيام يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا .

# الشيخان

منذ البداية وضع الدكتور طه حسين ان في الحديث عن الشيخين « أبو بكر » و « عمر » رضي الله عنهما لن يكون فيه إجديد يسبق اليه ، فما أكثر ما كتب القدماء والمحدثون عنهما ، وما أكثر ما كتب المستشرقون عنهما أيضاً .

كذلك الدكتور طه حسين ، كتب عن الشيخين جريا وراء تفصيل تاريخ الفتوح في عصرهما ، ولا عن معجزة انتصار المسلمين على الروم وقضائهم على الفرس واقامة أكبر امبراطورية . . لم يقصد الى هذا أيضاً . ان الذى يقصده الدكتور طه حسين فى تقديمه للشيخين هو أن يعرف شخصية كل منهما كما تصورها الأحداث التى كانت فى عصرهما وكما يصورها هذا الطابع الذى طبعت به حياة المسلمين من بعدهما ، والذى كان له أعظم الأثر فيما خضعت له الأمة العربية من أطوار ومانجم فيها من فتن .

والدكتور طه حسين يصور لنا شخصية أبى بكر كما تصورها الأحداث ويقدمه أمام أعظم محنة تقابل انسان . وهل هناك محنة أكبر من أن يموت محمد صلى الله عليه وسلم . ويكون أبو بكر هو المسئول بعده صلى الله عليه وسلم عن أمر المسلمين . لقد خرج أبو بكر من هذه المحنة دون أن تضطرب لها نفسه ودون أن يجد الضعف أو الريب الى نفسه سبيلا ، وعرف كيف يرد الصادقين من المؤمنين الى أنفسهم أو يرد أنفسهم إليهم . حين تلا عليهم هاتين الآيتين الكريمتين وهما قول الله عز وجل فى سورة آل عمران :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » .

وقوله سبحانه وتعالى فى سورة الزمر :

« انك ميت وانهم ميتون » .

فأى كارثة ومحنة يصادفها إنسان بعد موت رسول الله واضطراب الأحوال بعده ! ؟ ولا أدل على ذلك من أن عمر رضى الله عنه شك فى ذلك . . ولم يصدق بأن محمداً صلى الله عليه وسلم مات ، وأن بقية الصادقين شكوا أيضاً ، وأن من كان يعبد الله كفر . وارتد عن دين الله . كل هذا وأبو بكر ثابت الجنان قوى الإرادة فكيف استطاعت طبيعته أن تثبت أمام هذه الكارثة ؟

ويجيبنا الدكتور طه حسين فى كتابه « الشيخان » بقوله: « لاجواب على هذه الأسئلة الا ما ذكرته آنفا من أنه كان الصديق ، فهو أول من أسلم من الرجال ، وكان اسلامه صفوا خالصا قوامه التصديق العميق والإيمان الخالص من كل شائبة والاطمئنان الصادق السمح الى كل ما يحدث به النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم إيثاره النبى على نفسه فى كل موطن ثم البلاء الحسن كلما جد الجد واحتاج النبى أو المسلمون الى هذا البلاء . . . » .

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيقدمه لنا فى اسلامه وكيف أن هذا الإسلام كان كسب للمسلمين ، ويقدمه لنا فى جاهليته وكم كان النبى صلى الله عليه وسلم يتمنى أن يدخل

إلى حظيرة الإسلام أحد العمرين : عمر بن الخطاب أو عمر بن هشام ، ويقدمه لنا فى جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أبلى بلاء حسنا ، ثم يقدمه لنا يوم مات أبو بكر وتولى الخلافة من بعده ومواجهته لأولى المشكلات وهى مشكلة الفتوحات ، ويقدمه لنا فى عدله وفى إيمانه ثم مقتله على يد هذا الأعجمى .

ويرسم لنا الدكتور طه حسين صورة للخليفة عمر بن الخطاب فيقول : « لم يعرف المسلمون خليفة أو ملكا بعد عمر جعل بيت المال ملكا للمسلمين ينفق منه على الجيوش المحاربة ، ويعين منه من احتاج إلى المعونة ويوفر مايبقى منه ليشيعه بين المسلمين ، رجالهم ونساءهم وأطفالهم ، يأخذون منه أعطياتهم فى كل عام ، تسعى إليهم هـــذه الأعطيات دون أن يتكلفوا مشقة فى طلبها سواء فى ذلك منهم القريب أو البعيد . وقد رأيت أنه كان يحمل بنفسه المال إلى البادية الغربية من المدينة فيعطيه للناس فى أيديهم وقد رأيت كذلك أنه فى عام الرمادة كان يحمل الطعام على ظهره ويسعى به إلى الأعراب النازلين حول المدينة وربما طبخه لهم بنفسه ، ولم يعرف المسلمون ملكا أو خليفة بعده . . عنى بحماية الذميين والرفق بهم فى أمرهم كله كما عنى بهم عمر .

ثم لم يعرف المسلمون خليفة أو ملكا بعده . . عنى بأمر الدين وإقامة الحدود وتأديب الناس فى الصغير والكبير من أعمالهم وعلم المسلمين دينهم رفيقا بهم حريصا على أن تستقيم لهم أمور دنياهم وعلى أن يجنبهم ما يؤخذون به فى آخرتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا فعل هذا كله حتى بلغ منه ما لم يبلغ الخلفاء والملوك فى الإسلام وفى الأرض

التي لم تسلم فلسنا نعرف اليوم بلدا يوفر فيه الرزق على الناس من بيت المال أو من خزائن الدولة دون أن ينعم ذلك من العمل لأنفسهم وللناس ، ومن التزيد فى الكسب والتوسع فى الغنى . . . » ..

والدكتور طه حسين فى تقديمه للشيخين شاء أن يقدم للقراء شيئا جديداً لم يسبقه اليه أحد وهو بيان الجوانب والمميزات لهاتين الشخصيتين كما تصور سيرتهما والأحداث التى وقعت فى أيامهما ويجلو لنا أيضا الأسلوب الذى اتبعه كل من الخليفتين فى سياسة الحكم وتدبير شئون الدولة واقامة العدل والمساواة والحرية الأمر الذى يجعل هناك صعوبة لمن يجىء بعدهما فى الخلافة . ثم يستخلص من هذا الأسلوب معالم شخصيته كل منهما على ما رأينا واضحة قوية تدعو الى الاعجاب .

## مرآة الإسلام

وفى كتابه « مرآة الاسلام » يقدم لنا صورة أخرى مؤداها أن الاسلام كان ولا يزال دين الحنيفة السمحة والفطرة السليمة ، أتى به الرسول الكريم من عند الله عز وجل ليخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحكيم . ولقد بهر العربى ما يشيع فى هذا الدين من روح العدالة والتسامح وما يمتاز به من بساطة المنطق السليم وروعة الحق الواضح ، وما يفسر به الحوادث والأمور الكونية من صدق ووضوح ثم ما يرشد به الناس فيما يتعلق بحياتهم وطرق معيشتهم من هدى وعلم وما يصنع بهذه الأمور من ملوك تبعث فى النفس الرضى وتدفعها الى العمل المنتج . هذا هو مصدر عظمة الاسلام وسر ما يكمن فيه من قوة .

ولهذا الدين صول . وأولى هذه الأصول القرآن والثانى الحديث. وهناك علاقة بين الأصلين يمكن أن تحدد فى هذه العبارة التى يقولها

الدكتور طه حسين فى كتابه « مرآة الإسلام وهى أن القرآن يذكر الركوع والسجود ولكنه لا يحدد الركوع والسجود فى القرآن تحديداً دقيقاً فليس بد للنبى من بيان ذلك كله بالعمل والقول جميعاً ، فهو يقيم الصلاة للمسلمين ويأمرهم أن يصبحوا صنيعه وأن يقوموا حين يقوم ويركعوا ويسجدوا ويجلسوا حين يركع ويسجد ويجلس . وهو علمهم ما يقرءون فى صلاتهم وما يقولون فى السجود والركوع والجلوس وقل مثل ذلك فى مجالات القرآن كلها ، وهى كثيرة وكان النبى إذن مفسرا للقرآن بقوله وعمله وكان منبئا للناس بما يلقى الله فى قلبه من العلم بما ينبغى لهم وما يجب عليهم وما يجب أن ينتهوا عنه » .

وعلى هذا الأساس الذى وضعه الدكتور طه حسين وجبت دراسة القرآن والسنة على إعتبار أنهما مصدران من مصادر الدين الإسلامى .

والكتاب يحدثنا عن القرآن وإعجازه وعن أن القرآن كلام لم تسمع العرب مثله قبل أن يتلوه النبى . فهو فى صورته ليس شعراً لأنه لم يجر فى الأوزان والقوافى والخيال على ما جرى عليه الشعر ، إنه يتحدث إلى الناس عن أشياء لم يتحدث إليهم بها أحد من قبله . يتحدث عن التوحيد فيحمده ، وعن الشكر فيقدسه ، ويتحدث عن الله فيعظمه ويصف قدرته التى لا حد لها وعلمه الذى لا غاية له وإرادته التى لا ترد وخلقه للسموات والأرض وما فيهن من يسير الأشياء وخطرها ، ويدعو الناس إلى عبادة الله الواحد القهار .

والأصل الثانى هو السنة وهى كل ما ثبت من سنة محمد صلى الله

عليه وسلم قولا وعملا يعتبر خلاصة تبشيره وإنذاره وشهادته ودعوته إلى الله .

والدكتور طه حسين يوضح الفرق بين أحكام القرآن وأحكام السنة فلكل قواعده وتشريعاته . على أن القرآن في نصه باق على الدهر لا يضره أن يختلف المسلمون في فهم نصوصه أو في تأويلها ، وأما الحديث فكان أصحاب النبي يتشددون في رواية الحديث عن النبي بل كانوا لا يقبلون حديثا عن النبي إلا بعد أن يشهد اثنان من المسلمين بأنهما سمعاه أو شاهداه .

# الوعد الحق

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن بعض المتقدمين في الإسلام .. من هذه الصفوة الممتازة التي قامت على أكتافها الدعوة الإسلامية ، وهؤلاء المستضعفون في الأرض الذين جاء الإسلام فنفخ فيهم من روحه وأشعرهم بكيانهم الإنساني الكريم الذي لا يتأثر ببياض وجه أو سواده ، ولا يخضع لنظام جائر .. الإسلام الذي وعد بأن يقيم السدود بين الأحرار والعبيد .. نعم العبيد الذين علمهم الإسلام معنى الحرية ومعنى الكرامة الإنسانية فلم يفرق بين الناس بشرف مولد ولا جاه منبت وإنما ميز بين النفوس بما قدمت من خير أو عملت من شر ، ومن هؤلاء الرجال الذين وعدهم الله ذلك الوعد الحق « عمار بن ياسر » و « بلال بن رباح » و « صهيب بن سنان » .

وفي هذا الكتاب يقدم الدكتور طه حسين تحليلا لهذه الشخصيات ، وجهادهم في سبيل الأمة دعائم الحق ، وأعمالهم من أجل نشر الدعوة .. واتصالهم بالرسول وبالخلفاء الراشدين من بعده ، وعلاقاتهم للإسلام في أعوامه الأولى . فضلا عن جوانب كثيرة من أخلاقهم وعلاقاتهم بالآخرين ومواقع كل واحد منهم وهل هو حقا في مكانه السليم أم لا .

والكتاب يعرض لنا بشيء من الاعتزاز كيف أن الإسلام يقدر رجاله .. يتساوى فى هذا التقدير العربى وغير العربى .. لا فرق بين هذا وذاك إلا بالتقوى .

فها هو صهيب الرومى يصبح إماما للمسلمين يصلى وراءه الجميع ممن كانوا أرقاء وسادة قدماء بعد أن سوى الإسلام بين الجميع .

ويصبح عبد الله بن مسعود أميراً لبيت مال المسلمين فى الكوفة .

ويخرج بلال إلى الجهاد فى عهد أبى بكر ويقيم فى دمشق حتى يلقى ربه .

ويصبح عمار بن ياسر أميراً للكوفة ، ثم يعود إلى المدينة حتى تقتله الفئة الباغية .

## الفصل الثالث

# إسلاميات . أحمد أمين

حين اختار احمد امين لاسلامياته .. دراسة الحياة العقلية فى الاسلام .. كان يعلم مقدما انه سوف يكتب للناس فلسفة ، فالنظرة بالعقل الى العقل هى الفلسفة بعينها .

لكن اسلامياته حين انتشرت أثبتت ان الفكرة العميقة لايتعين ان تكون ملفوفة فى رداء من الغموض ، وان دقة التفكير تتعارض مع روعة الحس وعمق الشعور .

# إسلاميات

## احمد امين

فى تقديمه للجزء الأول من كتاب « ضحى الاسلام » قال الدكتور احمد امين ( لعل أصعب ما يواجهه الباحث فى تاريخ أمة هو تاريخ عقلها فى نشوئه وارتقائه ، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب ، ذلك ان مدار البحث فى المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود وما يطرأ عليها من تغيير ظاهر جلى . اما الفكرة اذا حاولت ان تعرف كيف نبتت ، وكيف نمت وما العوامل فى ايجادها ، وما العناصر التى غذتها وما الطوارىء التى طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها اعياك ذلك ، وبلغ منك فى استخراجه الجهد .. )

بهذه الكلمات السريعة يحدد لنا احمد امين منهجه فى دراسة الحياة العقلية عند المسلمين منذ نشأتها حتى القرن الرابع الهجرى وهو الجانب الذى اختاره للدراسة .

وعلى هذا فالدكتور أحمد أمين يحلل بعقله العقلية الإسلامية فى نشوئها وتطورها .

وهذا التحليل اقتضى منه الرجوع إلى العوامل الدينية المستمدة من الإسلام ، والعناصر الدخيلة على المسلمين من الحضارة الفارسية والهندية ، ومن الفلسفة اليونانية وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها فى بوتقة واحدة . . هى الحضارة الإسلامية .

أساس الفكرة إذن عند أحمد أمين هى أن الشرق يمتاز بظاهرة قوية أثرت تأثيراً قوياً فى حياته ، وصبغت تفكيره بصبغة غلبت على جميع أنظمته . . ذلك هو الإسلام الذى انتشر من أقصى الشرق فى الهند إلى أقصى الغرب فى الأندلس ، فإذا شئنا أن نعرف ما كان لنا ،

وما ينبغى لنا أن يكون . . فعلينا أن نرجع إلى تلك الأصول الإسلامية لنتبين الأسس التى قامت عليها والعوامل التى أدت إلى قيامها .

ولما تيسرت للدكتور أحمد أمين هذه المادة الإسلامية التزم فى بحثها بثلاثة أبواب كان يفصلها عندما يتناول هذه المادة وما وراءها من عقلية ، وهذه الأبواب الثلاثة هى : الناحية الاجتماعية ، ثم العلمية ، ثم الدينية .

والقارىء لكتب أحمد أمين فى الإسلام لا يجد عناء فى البحث عن هذه الأبواب الثلاثة ممتزجة فى كل جزء من أجزاء إسلامياته .

فإذا شئنا أن نعرف العقلية — على طريقة أحمد أمين — فلابد أن نعرف تاج هذه العقلية وهو الدين وأدواتها التى تبرز بها وتتحقق وهى العلوم المختلفة ، وحياتها وروحها وهى المراكز الاجتماعية التى نمت فيها وترعرعت .

وبمعنى آخر فإن العقلية الإسلامية فى نظر أحمد أمين أشبه ما تكون بالنهر الجارى المتدفق . . الحياة الاجتماعية روافده ، والحركة العلمية مجراه ، والدين مصبه وغايته . وتجد تطبيق هذه الفكرة بوضوح فى « فجر الإسلام » ، ومفصلة فى « ضحى الإسلام » ، وأشد تفصيلا فى « ظهر الإسلام » .

وعلى هذا النحو يكشف لنا أحمد أمين الحياة العقلية فى الإسلام من جميع أنحائها ، ويفتح للباحث أبوابها على مصاريعها كى يغدو ويروح إلى كنوزها التى كانت تتوارى عن الأنظار بل التى كانت تمتنع عليه إقتناعا . وكل ذلك بفضل ملكاته العقلية التى إئتلفت منها

بشخصيته العلمية بخصالها الفذة . وأولى هذه الخصال تعمقه للثقافة القديمة والحديثة تعمقا أتاح له كلما درس فكرة أتقنها فهما وفقها ونقدا دقيقا ، وكأنه لا يريد أن يترك فيها بقية .

وخصلة ثانية هى خصلة التعميم والتنظيم فقد كانت لديه قدرة غريبة على استخلاص الأفكار الكلية التى تجمع الجزء إلى الجزء وتضم العنصر إلى العنصر فإذا الكل يستوى قائما ، وإذا الفكرة تتمثل واضحة . وهو لذلك دائم التحول من الجزئيات إلى الكليات . ولا يزال يلائم بين ما يصل إليه من الكليات فى الموضوع الواحد حتى يتكون له فصل ، وما يزال يلائم بين الفصول حتى يتكون له باب ، وما يزال يلائم بين الأبواب حتى يتكون له كتاب . ومن ثم يبدو التناسق واضحاً فيما يؤلفه . إذ يحسن تصنيف الأفكار كما يحسن ترتيب الفصول والموضوعات ترتيباً دقيقاً بحيث يعمها الاستواء . والتناسق فلا نشاز ولا إضطراب ولا طغيان لفصل على فصل أو الفكرة على فكرة مع الوضوح التام ، ومع ضرب من المنطق الحاد الذى يشفع بالقدرة على التعليل ، وهى قدرة بدأها فى الأزهر والقضاء الشرعى ونماها فى الجامعة وعلى ضوء ثقافته الحديثة .

وخصلة ثالثة هى خصلة الحرية العقلية فهو يجهر بالحق فى صراحة وبدون مواربة وبدون أى تكلف ، يجهر به فى كل ما يمس الحياة دنيا ودينا . ومن خير ما يصور ذلك عنده موقفه من المعتزلة . فقد كان ينصرهم دائما ويشيد بهم دائماً ، ولكن ذلك لم يستر عنه معايبهم ، فمضى يشرحها شرحاً واسعاً ، شرح العالم المستبصر ، بل شرح العالم الحر الفكر الذى لا يحفل إلا بالحق وحده فهو يعيش له ويعيش به ويعلنه

إعلاناً صريحاً لا غموض فيه ولا خفاء : وكذلك كان شأنه مع الشيعة ، فقد أجهد نفسه فى تصوير عقيدتهم بكتابه « فجر الإسلام » وراحوا يعلنون عليه حرباً شعواء ولكن هذه الحرب لم تصرفه فى كتابه الجديد « ضحى الإسلام » عن آرائه القديمة ، بل لقد مضى يثبتها ويثبت معها نقداً جريئاً إذ إعتقد أنه حينما يقول الحق ، لا يخشى فيه لومة لائم .

وثمة خصلة أخرى تتصل بهذه الخصلة ، هى عدالته فى الحكم على الأشخاص والآراء عدالة ملؤها النزاهة ، وهى عدالة اكتسبها نظرياً فى مدرسة القضاء الشرعى وفى أثناء درسه للأخلاق ، وعملياً حين اشتغل قاضياً ، وتولى الحكم فى القضايا الشخصية ، ونحن لا نقرؤه فى « ضحى الإسلام » وفى غيره من مصنفاته حتى نحس كأنما نصب بين يديه موازين عادلة لا تحيد يميناً ولا شمالا بتأثير هوى أو عصبية ، وهى موازين شديدة الحساسية ، تزن كل رأى مهما دق وكل فكرة مهما صغرت ، وهى لذلك تتيح له سلامة الحكم وصواب النقد ، فأحكامه ونقده جميعاً لا تشوبهما شائبة من ضعف أو عوج أو نقص بل هو دائماً رائده التحرى والدقة والاحتياط والإنصاف والاعتدال إلى أقصى حدود الاعتدال .

وخصلة خامسة فى أحمد أمين تضم إلى الخصال السابقة ، هى الطموح إلى تحقيق المثل الأعلى فى البحث والدراسة ، وهى خصلة دفعته دفعاً إلى كفاح علمى عنيف استهله بتثقيف نفسه ثقافة عميقة بالمعرفة القديمة والحديثة والفقه بمناهج القدماء والمحدثين جميعاً . ثم مضى ينفق أيامه فى دراسة الحياة العقلية الإسلامية باذلا كل ما يملك من قوة وجهد متذرعاً بكل ما يستطيع من صبر وجلد ، محتملا من

ضروب المشقات ماتنوء به العصبة أو أولو القوة . إذ كان الطريق العلمى إلى تلك الحياة مليئا بالعقبات والصعاب . فما زال يقهر كل عقبة ويذلل كل صعوبة ، حتى استقام له الطريق ممهدا واضح المعالم .

وبهذه الخصال جميعاً استطاع أحمد أمين أن يقدم كتبه فى الإسلام على كل من يعنون بدراسة الفكر العربى الإسلامى فى قرونه الأربعة الأولى سواء فى بيئات العرب أو بيئات المستشرقين وأن يملأ قلوبهم إعجاباً به إذ جلا ذخائر هذا الفكر وكنوزه تجلية دقيقة، تجلية تشهد له بالبصيرة النافذة والأداة العلمية الكاملة فى جمع المواد واستقصائها واستخلاص معانيها ، مع طول النظر ودوام التنقيب ، فضـــلا عن التحليل الدقيق والنقد النزيه .

* * *

بهذه الروح العلمية كتب أحمد أمين كتبه فى الإسلام وهى : « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » فى ثلاثة أجزاء و «ظهر الإسلام» فى أربعة أجزاء و « يوم الإسلام » و «الفتوة والصعلكة فىالإسلام» و « هارون الرشيد » وأصبحت من المصادر الأساسية التى لا يستطيع أى باحث الاستغناء عنها وخاصة فيما يختص بالحياة العقلية أو الفكرية فى الإسلام .

والآن وبعد أن تعرضنا لمنهج أحمد أمين فى البحث الإسلامى يحسن بنا المرور ولو سريعاً على ما كتبه .

# فجر الإسلام

يحدثنا الدكتور أحمد أمين فى كتابه « حياتى » عن تجربته فى أول كتاب فى إسلامياته وهو فى نفس الوقت أول كتاب صدر بعد الاتفاق على إعادة كتابة التاريخ الإسلامى وبعد أن يذكر اتفاقه مع الدكتور طه حسين والأستاذ عبد الحميد العبادى على دراسة الحياة الإسلامية من نواحيها الثلاث يقول : « فأخذت أحضر الجزء الأول الذى سمى بعد ذلك — فجر الإسلام — وصفت فيه ما يقرب من سنتين فرسمت منهجه ورتبت موضوعاته ، وكنت إذا وصلت إلى موضوع أجمع مظانه فى الكتب ، وأقرأ فيها ما كتب عن الموضوع وأمعن النظر ، ثم اكتبه مستدلا بالنصوص التى عثرت عليها حتى أفرغ منه وانتقل إلى الموضوع الذى بعده وهكذا . وكانت أكثر الأوقات فائدة الأجازة الطويلة التى تبلغ أكثر من خمسة أشهر ، إذ كنت أجمع الكتب التى يظن أنها تبحث فى الموضوع وأحملها على دفعتين أو ثلاث إلى مائدة وضعتها فى حديقتى خلف بيتى فى مصر الجديدة وأبدأ العمل فى الساعة الثامنة صباحاً وأجلس على كرسى أمام الكتب أقلبها وأستخرج نصوصها وأستخلص من كل ذلك ما أكتبه إلى ما بعد الساعة الواحدة فى جلسة واحدة أنسى فيها نفسى وأنسى كل شىء حولى . وهكذا أفعل فى أيام العمل التى لا يكون فيها دروسى فى الجامعة حتى ينتهى الجزء ، وقد تم هذا الجزء الأول من فجر الإسلام فى آخر عام ١٩٢٨ ، ولقد لقيت من حسن استقبال الناس لهذا

الجزء ، وتقديرهم له واهتمامهم به نقداً وتقريظاً ما شجعنى على المضى فى هذه السلسلة » .

بهذا الأسلوب من العمل الجاد المضنى كتب **احمد امين** كتابه « **فجر الاسلام** » الذى يعتبر نقطة البداية فى مشروع كتابة الحياة الإسلامية وقد قصدت أن أنقل تجربة المؤلف بلسانه حين كان يقوم بكتابة هذا العمل العظيم . وقد حدثنا الدكتور طه حسين عن هذا العمل بالذات وعن صاحبه وعن المجهود الشاق الذى بذل فى تأليفه فقال وكأنه يعترف بما لهذا المفكر العظيم من دور فى بناء هـــذا المشروع .

« أشهد بأن زميلى ــ أحمد أمين ــ قد ينهض بهذا العبء فى درس الحياة العقلية العربية كأحسن ما ينهض الرجل ذو الضمير العلمى الحى بعبء من الأعباء ... » .

وكتاب « فجر الإسلام » يتناول مرحلة العصر الإسلامى الأول وفيه تذليل لكل ما يعترض الباحث فى التاريخ الإسلامى من صعاب تصور الجوانب المختلفة للحياة العقلية فى عصر صدر الإسلام والعصر الأموى سواء الدينية أو العلمية أو الاجتماعية وهو نفس الأسلوب الذى أخذ أحمد أمين نفسه به فى دراسة الإسلاميات .

والحق أن الدكتور طه حسين قد لخص أسلوب الدكتور أحمد أمين فى تقديمه لكتاب فجر الإسلام بقوله :

« أخذ أحمد أمين نفسه بمناهج البحث فى درس الحياة العقلية للأمة

العربية إبان القرن الأول للهجرة فانتهى إلى نتيجتين كلتاهما قيمة حقاً : الأولى أنه أظهر هذه الحياة كما كانت معقدة ملتوية ولكنها قوية أشد قوة ممكنة ، خصبة أشد خصب ممكن ، بعيدة كل البعد عما يظن الناس من هذه السذاجة الغليظة الجافة والثانية أنه وصل بين الثقافة الأدبية والفلسفة وصلا لن يتعرض منذ الآن لضعف أو وهن . . فقد استطاع أحمد أمين أن يضع أيدينا على هذه الآثار القوية الخالدة التى يتركها الدين والفلسفة فى الأدب ، وأصبح كتابه وسيلة قيمة إلى أن تصل الحياة الدينية الإسلامية فى وضـــوح وجلاء إلى نفوس الذين يدرسون الأدب العربى فى الجامعة أو فى غيرها من معاهد العلم العالى» .

**وبعد ان تعرفنا على الظروف التى كتب فيها الكتاب ومنهجه يجدر بنا الآن ان نتعرف على الجوانب التى اهتم بها الكتاب وهى ثلاثة :**

أثر الفرس فى العرب فقد أوضحه أحمد أمين توضيحاً كبيراً . فبعد أن يقدم هذه الامبراطورية ذات الحضارة التى استطاعت أن تقف أمام الاسكندر الأكبر وكان لها ديانتها الخاصة وتعرف قبل أن يدخلها الإسلام بالديانة الزرادشتية » . . بعد كل هذا يبين لنا أحمد أمين التأثير الدينى فى حياة العرب الجديدة وكيف بدأ منعكساً فإذا الفارسيون أنفسهم قد اندمجوا فى صميم الحياة العربية ولكنه انعكاس ظاهرى ظل مقصوراً على السياسة والحالة الاجتماعية . وأما إعتقادهم الدينى فقد بقى كامنا فى نفوسهم وقد حملوه إلى دنيا الإسلام فى ضمائرهم ولم يتنازلوا عنه فى سرهم ، ويذكر أحمد أمين أن هذا الشعور ظهر بصورة مقنعة فى نزعاتهم الشعوبية إذ كانوا يجدون المسلمين قد أخذوا

بلادهم عنوة وأصبح عامل من عمال المسلمين يدير هذه البلاد — على أنهم — الفرس — حين ذابوا فى المجتمع العربى استطاعوا أن يلونوه ويأثروا فيه .

كذلك يذكر أحمد أمين أن الفرق الشيعية التى لها تاريخها فى الإسلام كانت معتقداتها فى الأصل فارسية ، وللفرس غير هذا الأثر العقائدى على العرب أثر فى الأدب العربى . وساق أمثلة من الشعراء والأدباء من ذوى الأصول الفارسية وقد قالوا الشعر وشاركوا فى الأدب بعقول فارسية وألسنة عربية .

الأثر الثانى بعد الفرس الذى يذكره أحمد أمين فى كتابه هو أثر الخوارج .فهم أصحاب الفكرة الأولى فى نقد الخلافة والجدارة بها ، وقد كان الخوارج من أجل آرائهم السياسية الحرة أشد المخاطر ، حتى سالت على آرائهم دماؤهم وقد ميزهم الاعتقاد الجازم والعبادة الخالصة وتقديس النبى الكريم ، ولكنهم لم يتورعوا عن أن يسفكوا دماء بعض الصحابة إذا وجدوهم مخالفين لآرائهم ، وكان الحجاج العقائدى ديدنهم قبل أن يرفعوا السيوف .

والحق أن أحمد أمين كان موضوعياً حين عرض لهؤلاء الخوارج فى كتابه . فلم يكل لهم المديح والإعجاب ، كما أنه لم ينتقص من قدرهم شأن غيره من الكتاب الذين كانوا دائماً يلعنونهم .

وأثر الخوارج فى العقلية الإسلامية وجده أحمد أمين فى الجدل السياسى بتقديم خليفة على آخر ، ورأى أن مرد ذلك هو يوم التحكيم حين رفضوا الحكومة وقالوا لا حكم إلا لله ، بعد أن رأوا فريقاً مخالفاً لهم — وهم أصحاب معاوية وعمرو بن العاص — قد رفعوا

المصاحف على رؤوس الرماح رمزاً لتحكيم كتاب الله فى القتال ، وقد وقعت إذ ذاك الخديعة الكبرى حين إقترح عمرو بن العاص تنحية علي، وسعى لتنصيب معاوية بن أبى سفيان خليفة وأميراً للمؤمنين، فنشب قتال من أجل ذلك بين العرب فى مستهل عهدهم بالإسلام ، وكانت تلك هى الحرب الأهلية الأولى ، وعاش بعدها الخوارج مطاردين حتى ضاعت فلولهم فى العصور العباسية .

.. الأثر الثالث كما يرى أحمد أمين فى كتابه هذا كان للمعتزلة .. وهو حين يتكلم عنهم لايبين الأسباب الأولى التى نشأ عليها تفكيرهم وإيثارهم للعقل المحض . وفى رأى أحمد أمين أنه لولا الخوارج لما كانت المعتزلة . فالخوارج كما عرفنا كان أسلوبهم الصراحة . وهم الذين قالوا لعلى بن أبى طالب : « أخطأت،ومن أخطأ من أئمة المسلمين وجب رجوعه إلى الصواب ، وإذا لم يرجع وجب حربه وزجره ولو آل الأمر إلى قتله » وكل هذا يوضح عقليتهم حتى يمكن فهم المعتزلة بعد ذلك .

وأحمد أمين حين عرض لنمط تفكير المعتزلة فى كتابه هذا وخاصة فى الجدل حول القضاء والقدر إنما أراد الكلام عن طبائع الفكر والاعتقاد عندهم ومن حلقات المعتزلة خرجت أفكار الجبر والاختيار ودارت عليها عقول أهل الكلام سنين طوالا ولم يستطع فريق أن يقنع الفريق الآخر أو ينتهى إلى نتيجة حاسمة حتى يئست منهم الهيئة الاجتماعية العربية والإسلامية .

ويرى أحمد أمين أن هذه الحلقات الخاصة والعامة التى كان يدور

فيها الجدل الديني والسياسي هي التي رمت على العصور العباسية كلها قوة الفكر والحجج وطبائع الجدل والكلام ، وهذه هي الظواهر الفكرية التي جعلت للأمة العربية وجوداً فكرياً ، فحركت المبادىء الأولى عن أمكنتها التي كانت لا تريم عنها إلى مجال واسع وآفاق بعيدة ، انبسط فيهما الفكر العربي ، والرأي الإسلامي واتخذ له حياة جديدة ذات صبغة خاصة دون أن يكون فارسياً أو غير ذلك .

هذه تقريباً هي الجوانب الأساسية التي يقوم عليها الكتاب الأول في الإسلاميات ويعني به كتاب «فجر الإسلام» الذي تجعلنا قراءته تزداد يقيناً مما قاله الدكتور طه حسين في تقديمه ، وبأن صاحبه يتصرف في المسائل الأدبية والفلسفية واللغوية بعقل يعرف كيف ينتقل من قضية إلى قضية ، ومن مقدمة إلى نتيجة ، وكيف يضع الأشياء بعد ذلك كله في نصابها معتدلا أحسن الاعتدال لا يعرف التهويل أو التهوين إليه سبيلا .

## ضحى الإسلام

**هذا الكتاب يتناول بالبحث العصر العباسي الأول وهو عصر اتسم بالتقدم والحضارة . لذلك وضع احمد امين عنوانا له هو « ضحى الاسلام » ولهذا العنوان دلالته بالطبع فقد كان العصر الأموي وما قبله من عهد الخلفاء الراشدين يعتبر «فجرا» لانبثاق نور الظلام ، ثم اشرقت بعد ذلك شمس النهار الاسلامي في « الضحى » متمثلة فيما احرزه العرب من تقدم وحضارة .**

وأحمد أمين يحدثنا في كتابه « حياتي » عن تجربته مع هذا الكتاب الذي نال إعجاب واستحسان الكثيرين فيقول : « استمررت في إخراج ضحى الإسلام في ثلاثة أجزاء وترقيت في منهج التأليف في ضحى الإسلام

فقد رتبت موضوعاته التى تستغرق ثلاثة أجزاء وأحضرت ملفات كتبت على كل ملف إسم الموضوع . ملف عليه إسم المعتزلة وآخر هو الخوارج ، وثالث أثر الجوارى فى الأدب ، ورابع الثقافة الهندية . . ثم أحضرت أمهات الكتب التى تبحث فى هذه الموضوعات كالأغانى والحيوان للجاحظ وكتب إبن قتيبة ورسائل الجاحظ وكتب ابن المقفع ونحو ذلك أقرؤها كلها . . . » .

ويستمر أحمد أمين ثمانى سنوات فى تأليف هذا الكتاب الذى خرج فى ثلاثة أجزاء . .

يبحث الجزء الأول منها الحياتين الاجتماعية والثقافية ، ولم يكد يترك ظاهرة من ظواهر الحياة الأولى إلا جلاها كأروع ما تكون التجلية . وقد بدأ بسكان الدولة الإسلامية فتحدث عن أجناسهم واختلافهم فى الخصال والأهواء ، وانصهارهم بعضهم فى بعض مما أتاح توليد عقل واسع . ومن ثمة تحدث عن الامتزاج بين العرب والموالى دما وعقيدة وفكرا ، وما نشب بينهما من صراع أدى فى بعض الجوانب إلى ظهور نزعة الشعوبية وما خلفته من آثار مختلفة فى الحياتين العقلية والأدبية ، ودعاه ذلك إلى أن يتحدث عن الرقيق وأثره فى الثقافة وفى الشعر وفى الغناء . وما كان للجوارى فى هذا العصر العباسى الأول من عمل واسع ، وأخذ ينظر فى حياة الخلفاء العباسيين وحياة الناس وماذا كانوا يلبسون ويطعمون وما توزع حياتهم من ترف مادى ومن فقر وبؤس أو بعبارة أخرى من لهو وبؤس حتى إذا فرغ من تصوير الحياة الاجتماعية وظواهرها المختلفة المادية والمعنوية انتقل

يصور الحياة الثقافية بكل جداولها الأجنبية والعربية كاشفا عما أخذه العرب من الفرس والهند واليونان وكيف أخذوه ترجمة أو شفاها ، وكيف ساغوه وتمثلوه وأذاعوه فى حياتهم العلمية والأدبية واللغوية ، وأهم من نهضوا بهذا الصنيع وهو فى كل ذلك يستنطق الكتب والنصوص ويقف طويلا عند الثقافة الدينية وما سقط إلى المسلمين من أهل الكتب السماوية كما يقف عند الإسلام وانتشاره ونشوء فرقة المتكلمين فيه ، ومدى تأثير الفلسفة فى نظرهم وجدالهم الدينى بخاصة ، وفى تنظيم العالم العربى بعامة ، وكيف يسيطر الإسلام على حياة المسلمين الاجتماعية .

ويمضى إلى الجزء الثانى فيصف الحركة العلمية فى العصر العباسى الأول مستهلا حديثه بقوانين الرقى للعقل البشرى نافذاً إلى تطبيقها على العقل العربى ، ويتحول إلى قوانين العلم وتطوره مجتليا لها فى العالم العربى الذى انقسمت شجرته إلى فروع نقلية وأخرى عقلية لكل منهما منهجه الخاص فى البحث والتأليف . فبينما تعتمد الأولى على الرواية وصحة السند تعتمد الثانية على معقولية الحقائق وامتحانها . ويقف عند اتساع صناعة الورق وأثرها فى تدوين العلم وأثر الخلفاء العباسيين وأثرهم فى العلوم المتصلة بالسياسة وشئون الدولة ، وينتقل إلى معاهد العلم ومجالسه ودور الكتب ومناهج التعليم ويصور كل ذلك تصويرا دقيقاً كما يصور مراكز الحياة العقلية فى الحجاز والعراق ومصر .

وينتقل إلى الجزء الثالث الخاص بالفرق الدينية وهو يستهله بالحديث عن نشأة علم الكلام وأسبابها ، ويقف عند منهج القرآن ومنهج المتكلمين ومنهج الفلاسفة فى الالهيات وتقرير الحقائق وما بين

المنهجين من خلافات ويتحدث عن المعتزلة وتعاليمهم التى أقاموها على خمسة أسس وأصول هى :

**« القول بالوعد والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ووضع الفاسق فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر ، والقول بالتوحيد وما يتصل بذلك من تنزيه الذات العلية عن التجسيم والايمان بأن القرآن مخلوق ، ثم القول بالعدل ومايتصل بذلك من وجوب العدل على الله ومن ان الانسان حر الارادة » .**

ونراه يشيد بمذهب المعتزلة لإعلائهم شأن العقل وتحكيمه فى النقل ولأخذهم بقانون حرية الإرادة ، بل حرية الرأى العامة حتى فى الدين وفى فهم القرآن الكريم ومع هذه الإشادة ينتقدهم نقداً منصفاً إذ توسعوا فى قياس الله على الإنسان ، وفى تحويل الدين إلى مجموعة من القضايا العقلية غير حاسبين حساب الشعور وحرارة العاطفة . وبذلك أضعفوا الروح وغالوا فى تقــــدير العقل ، كما غالوا فى مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لو اقتضى الأمر استخدام السيف ، وهو مبدأ خطر ، إنه يجعل فى الأمة حكومة داخل حكومة ويهدد الحرية العامة فى الرأى والعقيدة وهو ماحدث فعلا حين دفع المعتزلة المأمون والمعتصم والواثق لمحاكمة من خالفوهم فى القول ، بخلق القرآن ، وجعلوا البلاد كلها موضوع هذه المحاكمة الظالمة ، وعذبوا فيها الناس . وكان حرياً بهم وهم الداعون إلى حرية الفكر والخضوع إلى سلطان العقل أن يتسامحوا مع مخالفيهم فى العقيدة ما دام رأيهم يضر بمصلحة عامة . وقد مضى الدكتور أحمد أمين يتحدث عن تاريخ الاعتزال وأشهر رجاله فى البصرة وبغداد كما تحدث بالتفصيل عن محنة

خلق القرآن وتاريخها السياسى ونتائجها على المعتزلة مما أدى إلى أفول نجمهم وبزوغ نجم المحدثين .

ويتحدث الدكتور أحمد أمين عن الشيعة فيسهب فى الحديث عن فرقهم وأئمتهم وأسس عقائدهم فى الإمامة والتشريع وأصول الدين ، وهو فى كل ذلك يحلل وينقد لايخشى لومة لائم ، فقد نصب نفسه للحق والدفاع عنه . ويعرض لخصومتهم مع العباسيين ويعنف بالطرفين جميعاً ، فقد أقحموا الأمة فى صراع حزبى ودموى لم تجن منه سوى الفرقة والفوضى ، ولو أنها اتجهت به إلى الغزو لفتحت أكثر العالم ، ولو أن الأمة راجعت نفسها لانصرفت عنهم وأزورت مؤمنة بأن أحق المسلمين بالخلافة أصلحهم للحكم سواء أكان شريف النسب أو كان وضيعه ، وسواء أكان من البيت الهاشمى أو من بيت نجار أو حطاب ، ويخرج من ذلك إلى بيان آراء المرجئة والخوارج وتعاليمها . وينظر نظرة عامة فى الفرق التى انتشرت فى هذا العصر وفى كل جانب يتحدث عن أثر هذه المذاهب فى الأدب شعره ونثره .

والحق أن عناية أحمد أمين واهتمامه بأدب الشيعة والخوارج جديران بالتسجيل والرصد .

فأدب الشيعة هو أدب حزين ، فيه دموع وحسرات ، وعليه أردية سود من طول الحداد على مصرع الحسين بن على رضى الله عنه ، وقد كان لحركة التشيع أثر بعيد فى إعطاء نواح الأدب العربى حياة جديدة . فالخلاف السياسى والتشاحن المذهبى كان الأدب يخدمهما ويسجل حركاتهما وسكناتهما .

كذلك يميز أدب الشيعة عنصران كبيران تنبه إليهما أحمد أمين فهما عنده يظهران فى عاطفة الغضب وعاطفة الحزن . وقد قال فى الغضب : « إنهم اعتقدوا أنهم سلبوا حقهم وغصبوه ، وأخذ منهم ظلما وعدوانا فغضبوا لذلك ودعتهم ثورة الغضب أن يقولوا وأن يقولوا كثيراً فى هجاء غاصبهم وفى بيان حقهم وفى شرح مظالمهم وفى إظهار حججهم . . . » .

أما حين يحدثنا عن عاطفة الحزن فيقول : « إن الدولتين الأموية والعباسية أخذتا بالعنف وعاملتاهما بأقصى مما يعامل الكفرة الملحدون. فمن حين إلى حين تحدث مجزرة . ولا يكاد يجف منهم دم حتى يسيل دم ، وتفننتا فى ذلك فقتل وصلب وإحراق وتذرية وإماتة بطيئة فى السجون بحرمانهم من النور والهواء والأكل والماء وكل هذا وأقل منه يستنزف الدمع ويذيب القلب .

أما أدب الخوارج فقد نظر إليه أحمد أمين نظرة منصفة ، رآه أدب القوة وأدب الاستماتة فى طلب الحق ونشره وأدب التضحية . وهو يرى تعبيرهم فى أدبهم أدب التعبير البدوى الذى لايتفلسف ولا يشتق المعانى ويولدها كما يفعل المعتزلة . ويرى هذا الأدب الخارجى أيضاً أدبا غاضباً . لكنه ليس كغضب أدب الشيعة .

وكان أدب الخوارج أدب الجماعة المتقشفة حقاً التى نذرت أرواحها للمنافحة عن العرب والمسلمين . فلم يعرفوا مجوناً ، ولا خمراً وإنما ألقوا بأنفسهم جميعاً إلى القتال وحومات الوغى . فكان أدبهم دليلا عليهم وعلى أخلاقهم هذه .

وقد وازن أحمد أمين بين ما بقى من أدب الشيعة وبين ما أثر من أدب الخوارج . فوجد أن أدب الشيعة إحتضنه سادتهم فى العصر العباسى ودونوه ، وكان لهؤلاء السادة الصدارة فى البحث والدرس والتأليف كالشريف المرتضى صاحب الأمالى المعروفة بإسمه . ولذا حفظ أدبهم من الضياع، وجاءنا منه الكثير . أما أدب الخوارج فإنهم وإن يكونوا قد عاشوا فيه لكن ما أثر عنهم كان قليلا لأن الأمويين كانوا حرباً عليهم والعباسيين لاحقوا فلولهم ولعنوهم وما وصل إلينا من أخبارهم إلا النذر اليسير الذى جمعه ورواه أبو العباس المبرد صاحب كتاب الكامل .

# ظهر الإسلام

والكتاب الثالث من إسلاميات أحمد أمين هو «ظهر الاسلام» الذى صدر فى أربعة أجزاء يعتبر مقدمة لدراسة واسعة للحركة العقلية فى النصف الأخير من القرن الثالث والرابع الهجريين وهى أوسع حركة وأخصبها وأعمقها فى تاريخ المسلمين إلى اليوم . لهذا عنى أحمد أمين فى الجزء الأول بناحيتين :

الأولى : وصف الحياة الاجتماعية فى هذا العصر فليس من الممكن فهم الحياة العقلية إلا بفهم بيئتها التى نشأت فيها، والعوامل التى ساعدت عليها، وطبيعة الناس الذين انتجوها ونحو ذلك .

والثانية وصف مراكز الحياة العقلية ونوع الحركات العلمية والأدبية التى ظهرت فى كل إقليم وخصائصها وأشهر رجالها وهو وصف موجز أراد به أحمد أمين أن يكون نقطة ارتكاز يتبعها لتفصيلها فيما بعد ذلك من أجزاء .

وفى الجزء الثانى من « ظهر الإسلام » يسلك أحمد أمين نمط ضحى الإسلام حيث يبحث فى تاريخ العلوم والآداب والفنون فى القرن الرابع الهجرى .

والقارىء يلمس مدى الجهد الذى بذله فى تحقيق بعض المسائل وذلك بالرجوع إلى مصادرها الأولى . وقد يكون للمسألة الواحدة أكثر من أربعة مصادر كل له رأيه الخاص ، فمثلا يرى البعض أن إخوان الصفا من الشيعة ، وبعضهم يرى أنهم ليسوا بشيعة . وهنا كان لابد على الدكتور أحمد أمين من مراجعة هؤلاء وأولئك ليقف على موضوعات الكتاب أولا ، ومعرفة منحى المؤلفين : هل هم شيعة أو غير شيعة حتى يستطيع استخلاص الرأى الصحيح .

والجزء الثالث من كتاب « ظهر الإسلام » خصصه لتأريخ الحياة العقلية فى الأندلس ولم يكتف بتأريخها فى القرن الرابع الهجرى وحده بل رأى أن حضارتها وحياتها العقلية تكاد تكون وحدة ، ففضل أن ينهج منهجاً جديداً مؤداه ألا يلتزم بالقرن الرابع الهجرى ، بل يؤرخ حياة الأندلس العقلية متسلسلة من وقت خروجهم منها أى نحو ثمانية قرون حتى تكون كلها مربوطة برباط واحد ومعروضة عرضاً واحداً .

وكان أمام الدكتور أحمد أمين أسلوبان للتأريخ ، فإما أن يؤرخ

تأريخاً أفقيا بمعنى أن يؤرخ الحياة العقليه فى كل عصر ثم يتبع ذلك بالعصر الذى بعده ، أو تأريخاً رأسياً بمعنى أن يؤرخ كل علم من مبدأ ظهوره فى الأندلس وكيف تدرج .

ويقرر الدكتور أحمد أمين أنه فضل الاسلوب الثانى .

ويستمر الدكتور أحمد أمين فى جزئه الثالث من أجزاء « ظهر الإسلام » بنفس الأسلوب الذى إتبعه فى بقية السلسلة الإسلامية من حيث أنه يؤرخ للحياة العقلية . فلم يتعرض فى هذا الجزء لشرح الحياة السياسية والاجتماعية إلا بالقدر الذى يلقى ضوءاً على الحياة العقلية ، خصوصاً وأن أكثر ما كتب عن الأندلس كان يدور حول السياسة وأقل القليل كان عن الحياة الفكرية فيها .

**لهذا راى احمد امين ان رصد الحياة العقلية فى الأندلس فى هذا الجزء مفيد وضرورى .**

وفى الجزء الرابع والأخير من الكتاب يؤرخ الدكتور أحمد أمين للمذاهب الدينية وتطورها ، وقد نهج فى ذلك نفس المنهج الذى اتبعه فى الجزء الثالث . فلم يقف عند القرن الرابع الهجرى لأن العقائد والمذاهب ليست كالآداب والعلوم والفنون سريعة التغير والتطور . وتكلم فى هذا الجزء عن المذاهب الرئيسية من معتزلة وأشاعرة وشيعة وسنة ومتصوفة .

وللمتصوفة أفرد باباً خاصاً مع أنهم ليسوا فرقة إسلامية لاشتهار أمورهم وقوة أثرهم فى العقيدة الإسلامية وبخاصة بعد القرن الرابع .

وهذا الجزء الرابع فى جملته عرض عام للعقيدة الدينية فى شتى صورها عند المسلمين منذ ظهور الإسلام حتى العصور المتأخرة .

وبعد هذا العرض السريع للأجزاء الأربعة لكتاب «ظهر الاسلام» تستوقفنا بعض الجوانب فى الكتاب . فما هو يحدثنا عن المعتزلة التى سبق أن حدثنا عنها فى فجر الإسلام وضحاه وكيف كان لهم دور فى تاريخ الفكر الإسلامى ، وطبيعة العقل الواعى الذى ظهر فى العرب وهم يناقشون أمور الدين والدنيا بحرية وتحرر . حتى أن أحمد أمين كان يرى أن نضج الفكر فى العصر العباسى الأول والثانى كان الفضل فيه للمعتزلة ومثل المعتزلة بالمدافعين عن حوذة الفكر الإسلامى أمام التيارات الجارفة التى جاءت من الفكر الآرى والسامى فقد حمل الفرس منذ دخلوا فى الإسلام أفكارهم وذكريات إعتقادهم الدينى ، وكذلك كان شأن الروم كما كان العراق محاطاً بالثقافات المختلفة والديانات المتباينة وكان السريان واليهود قد أيقظوا أذهانهم ناحية المسلمين. وحين دخل هؤلاء فى الدين الإسلامى، بدأت معتقداتهم القديمة ترفع الرؤوس فى معتقداتهم الجديدة فحدث الخلاف والشقاق فى الآراء والنزعات ووقفت فى وجه هذا التيار الطاحن كله جماعة المعتزلة يدافعون عن الإسلام ويصدون عنه البوادر الهدامة .

والفرق الدينية المنبعثة من الشقاق الفكرى الإسلامى تتماثل وتتوالد ويشتق بعضها بدوره من بعض آخر حتى أصبحت خضما زاخراً كاد الفكر الإسلامى أن يغرق فى أمواجه، بعد أن سبح وغاص ؛ حتى قال أحمد أمين فى هذه الفرق والتيارات إن كل هذه المذاهب صبغت فى

العراق ودعا إليها الداعون وتشكلت بأشكال مختلفة وأصطبغ بعضها بصبغة إسلامية . وتقرأ المذاهب المختلفة فى ذلك العصر فيأخذك العجب من كثرتها وتنوعها ، وكان كثير من أصحاب المذاهب قد تثقفوا بالثقافة اليونانية فأخذ كل فريق يستخدم هذه الفلسفة فى تدعيم ديانته فلما جاء المعتزلة يردون على هذه المذاهب وينتصرون للاسلام إضطروا أن يتفلسفوا هم أيضاً ليتسلحوا بما تسلح به خصومهم . لذلك إتسع علم الكلام إتساعاً عجيباً . ومما زاد فى سعته أنه شمل أشياء كثيرة لاتتعلق بالعقائد حسبما كان يظن بل نرى أنه إشتمل على أربعة أقسام كبار :

قسم الآلهيات مثل البحث فى الله وذاته وصفاته وأفعاله وأنبيائه ورسله ونحو ذلك وهذا معقول أن يكون فى صميم علم الكلام .

أما القسم الثانى فهو فى الطبيعة والكيمياء ، أدخل مثل الجوهر والعرض والجزء الذى لا يتجزأ والحركة والسكون ، والطفرة والتداخل والألوان والطعوم والروائح ونحو ذلك .

والقسم الثالث قسم سياسى محض صبغه علم الكلام بصبغة دينية كالكلام فى أيهما أفضل وأحق بالخلافة : على أم أبو بكر وعمر ؟ وكلامهم فى العلويين والعباسيين والفاضل والمفضول وشروط الإمامة ونحو ذلك .

والقسم الرابع عقلى وخلقى كالبحث فى الخير والشر والاستطاعة والاختيار وإعجاز القرآن والإجماع والقياس فإذا أنت قرأت كتابا

كالمواقف أو كالفرق بين الفرق أو كالملل والنحل رأيت مناحي مختلفة وإتجاهات مختلفة مع كثرتها وتشعبها .

ثم رأى أحمد أمين أن هذه الأمور مع كثرتها وتشعبها يمكن أن تقسم الفرق الرئيسية إلى خمسة أقسام .

١ ــ المعتزلة .

٢ ــ أهل السنة .

٣ ــ الشيعة .

٤ ــ الخوارج .

٥ ــ المرجئة .

**ويختم الدكتور احمد امين كتابه « ظهر الاسلام » بقوله: « لقد كانت هذه الحركات قوية عنيفة تتدافع ولاتتهاون وتتقاتل ولاتتسالم ، فمؤرخو الاسلام لا يقتصرون على تسجيل الوقائع الحربية وانما يضيفون اليها الوقائع الاعتقادية والطائفية واذا نحن صفينا الحساب كما يفعل التجار عند انتهاء مرحلة كبيرة من مراحل تجارتهم ليعرفوا ماذا كسبوا وماذا خسروا ، راينا اننا كسبنا حركة العقول وتمرينها على البحث وكثير من المران على الجدل كما كسبنا من وراء هذا الجدل توضيح المسائل المتجادل فيها . وكسبنا تربية كثير من العلماء في هذه الأجواء من النشاط . ولكننا خسرنا الحب والألفة بما ذاع من الاحن والبغضاء بين الطوائف المختلفة حتى بلغت حدا لقتل الكثير ، وخسرنا قوى كانت تنفع لو تجمعت فلما تفرقت فنيت . .**

**وهذه القوى لو كانت وجهت وجهة خير لانتجت نتاجا باهراً ، فلما وجهت وجهة شر ضاعت ، وأظن أن ماخسرناه أكثر مماكسبناه . وليس أدل على ذلك من حال المسلمين اليوم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » .**

# يوم الإسلام

**يختلف كتاب « يوم الاسلام » عن بقية كتب احمد امين فى شكله ومضمونه . فمن النظرة الأولى ندرك أنه لم يعتنى كغيره من الكتب بالتنسيق والتنظيم الذى يعتبر من اساسيات منهج احمد امين فى التاليف ، ويبدو ان احمد امين استثنى آخر كتبه ـ فقد توفى بعد صدوره بعامين ـ من تلك التكاليف التى كادت ان تكون مربكة للتاليف الذى تعود أن يجريه على نسق محكم ، فاطلق مؤلفه من اوله الى آخره فى غير قيد .**

فهو — من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة فى سرد مستمر لايقطعه عنوان ، ولا باب ولا فصل ، وإنما استعيض عن كل ذلك بنجوم ثلاثة بين بعض الكلام تشعر بإنتهاء ما قبلها وإبتداء مابعدها .

ولهذا الكتاب قصة .. فقد كان فجر الإسلام وضحاه وظهره سلسلة لايريد صاحبها لها الانقطاع . وكان تقديره أن يكون ظهر الإسلام كما يقرر فى « حياتى » حول خمسة أجزاء . ولكن شاء القدر أن يحول بينه وبين هذه النية ضعف بصره . وهنا توقف عن العمل فى تلك السلسلة ، وجعل يؤلف نوعين من الكتب : نوع من الكتب تكون قد ألفت من قبل ولاتحتاج إلى أى صقل وترتيب وأخرى مبنية على مطالعات سابقة مما كان يدخره فى الذهن على توالى الأيام .

ويبدو أن كتاب « يوم الإسلام » كان ضمن هذه الكتب التى كان يدخر مادتها فى الذهن ، حيث أراد فيه أن يبين أصول الإسلام وماحدث له من أحداث أفادته أحيانا وأضرته أحياناً أخرى . وسنبين فيه كيف

كان يعامل غيره من أهل الأديان أيام عزه وسطوته وكيف يعامله غيره أيام ضعفه ومحنته . وهذه تقريباً هى مادتها « يوم الإسلام » .

وكما قلنا فقد إعتمد فيه الدكتور أحمد أمين على معلوماته المختزنة وقليل من قراءاته المعاصرة .

أما لماذا كان عنوانه « يوم الإسلام » فكما يذكر الدكتور أحمد أمين أن ذلك لاشتماله على الإسلام فى أصوله وعوارضه ، فى عصوره المختلفة إلى اليوم ، وهم غرض منه شيئان :

الأول : أن نتبين منه الإسلام فى جوهره وأصوله وكيف كان .

والثانى : أن كثيراً من زعماء المسلمين أتعبوا أنفسهم فى بيان أسباب ضعف المسلمين . وهنا رأى أحمد أمين أن خير وسيلة لمعرفة أسباب هذا الضعف هو الرجوع إلى التاريخ . . فهو الذى يبين ماحدث مما سبب ضعفه تتضح الأسباب الحقيقية حتى يتمكن من يريد الإصلاح أن يعرف كيف يصلح .

ويوم الإسلام يحمل العديد من الأفكار والآراء التى إن دلت على شىء فإنما تدل على ثقافة قائلها وماهو مثلا يحدثنا عن معنى الجهاد فيقول « وشرع الإسلام الجهاد ، والجهاد كلمة إسلامية تستعمل بمعنى الحرب وهى مصدر جاهد يجاهد مجاهدة جهاداً ، مأخوذة من الجهد وهو الطاقة والمشقة » .

وقد شرع الجهاد فى الإسلام فى ثلاثة مواضع :

الأول : إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان .

الثانى : إذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم .

الثالث : إذا استنفر الإمام قوما لزمهم النفير معه بدون ذكر الأدلة.

ذلك إما يمكن أن يجىء به الوعى والحفظ من ذهن المؤلف ، وكان بمقدور أحمد أمين لو أطاعه النظر أن يرجع إلى أبواب الجهاد فى الصحيحين لدى مسلم والبخارى فإنهما استنفدا بالاحاديث المرفوعة والسماع الثابت جملة كبيرة من آراء الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أقوال الصحابة والتابعين وكلهم قد شارك فى الجهاد مع رسول الله أو بعده وجرى على سنته فى الحرب والدفاع .

كذلك قال احمد أمين كلمة فى الحرب والسلام إلى نحو ما قالها فى الجهاد : « وقد اثبتت التجارب أن الحرب سنة من سنن الاجتماع البشرى وأثر بسنة تنازع البقاء وتعارض المصالح والمنافع والاهواء ، بل هى سنة من سنن بعض الحشرات التى تعيش عيشة التعاون والاجتماع كالنمل . فهو يغزو ويبيد ويسترق ويستخدم رقيقه فى خدمته وترفيه معيشته » ويدل التاريخ ايضا على ان شعوب اوربا اشد البشر ضراوة وقوة فى الحرب فى أطوار حياتهم كلها من همجية ووثنية ونصرانية وصليبية ومدنية مادية . ومن علمائهم وفلاسفتهم من يرى منافع الحرب أكبر من مضارها ولا تزال جميع دولهم تنفق على الاستعداد لها فوق ما تنفق على غيرها من مصالح الدولة والأمور ، وترهق شعوبها بالضرائب الكثيرة فاذا لم تجد استعدادات وقد كان من تعاليم الاسلام منع جعل الحرب للاكراه على الدين والتمتع بالشهوات ومنع استعمال القسوة فى الحروب كالتمثيل بالأعداء ومنع قتل من لا يقاتل كالنساء الاطفال والعباد ، ومنع التخريب والتدمير وما لاضرورة له . . . » .

ويعقب أحمد أمين بأقوال معاصرة وأفكار راهنة حول الموضوع ومفاهيمه ، ثم يخرج فجأة إلى كلام حول ماسخره الله للإنسان من عون في الحياة بادئا من الآية الكريمة «هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً » ثم يمضى به الاستشهاد بالقرآن إلى هذه الآية الكريمة : « وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم ، فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون » .

وهكذا نجد اختلافاً واضحاً بين أحمد أمين فى كتبه الأولى « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » و « ظهر الإسلام » وكتابه هذا « يوم الإسلام » على الأقل فى طريقة التناول ومنهج البحث . ولكننا برغم هذا نجد فى الكتاب روح أحمد أمين وثقافته.

# الفصل الرابع

## إسلاميات هيكل

لم يكن عسيراً على الدكتور محمد حسين هيكل .. ان يقتحم ميدان السيرة التاريخية مدافعاً عن نبي الاسلام وخلفائه ، وأن يضفي على آثارهم التاريخية مسحة فنية تحيلها الى صور أدبية رائعة .. بعد ان استهل حياته ( محامياً ) يدافع عن حق يراه مشروعاً ، وحياته الفكرية ( قصاصاً ) يعرض للمشكلة في حياة الانسان .

# إسلاميات هيكل

بدأ الدكتور محمد حسين هيكل حياته الفكرية كاتب قصة، وختمها كاتب قصة أيضاً .. فأول كتبه كانت قصته ( زينب ) ، وآخرها قصته ( هكذا خلقت ) .

وفنه القصصي بين البداية والختام تمثيل حق لحياته في مرحلتيها الطبيعيتين ، واستجابة صادقة لعصرين .. عصر الشباب حيث النمو وعصر المشيب حيث النضج .

كانت باكورته القصصية مظهراً لنزعة التجديد ، ورغبة الخلق ، فيها انتفاضته الوجدانية نحو وطنه ، وفيها معالجته تصوير الحياة في قطعة عزيزة هي الريف . . فتوهجت في القصة مشاعر وعواطف ، وتعاقبت صور ومشاهد ، وتجلت فيها شخصيات شعبية ، أريد بها جميعا أن تحقق غرضا هفت اليه نفوس الداعين الى تجديد الأدب في مستهل القرن العشرين . . ذلك الغرض هو انشاء أدب مصرى السمات والروح يتأكد فيه طابع المصرية في التعبير والتصوير .

وكانت أعماله القصصية تحمل تلك النزعة . . بعد أن أصبح الدكتور هيكل رجلا خبر الحياة ومارس التجارب ، وتحولت فكرته في الأدب . وآمن بأن الأدب الحق هو الذى يتجاوز الحدود ويستعلى عن الاقليميات ولا يستند الى الطابع المحلى . . ومن ثم اخرج لنا فنا قصصياً في اطار مصرى ، عميق التغلغل في دخائل النفس البشرية وثيق الصلة بالغرائز الانسانية الثابتة ، تتجلى فيه عبرة الحياة وحقائقها في منحى حق التعبير الهادىء الطبع وفى نفس الوقت القوى النفاذ .

والدكتور هيكل الذى بدأ حياته هكذا قصاصا وختمها أيضاً قصاصاً لم يكن عسيرا عليه أن يقتحم ميدان السيرة التاريخية ويقدم أمثلة عظيمة ما زالت تعيش في وجداننا حتى الآن .

لم يكن من الصعب عليه أن يقتحم ميدان السيرة وهو فى الأصل قصاص .. والسيرة قصة حياة إنسان فرد ترك من الأثر فى الحياة ما جذب إليه التاريخ . وهى أقرب إلى القصة من التاريخ بمعناه العام حيث تحفل بالعواطف الجياشة ، والأحاسيس النابضة لأنها تعرض من سيرة الفرد جوانب مختلفة من حياته ، حتى تتجلى مقومات شخصيته ، وتبرز معالم حياته ، وتفصح عن سر نبوغه وتفرده فالسير لاتحفل إلا بكل نابغة فريد .

والسيرة بعد كل هذا أقرب للقصة أكثر من قرابتها للتاريخ حيث تلمس الإنسان مباشرة ، بينما فى التاريخ نلمس هذا الإنسان عن طريق الأحداث التاريخية التى أحاطت به فمنها ما قيل أن الإنسان هو المؤثر الحقيق فى مجرى التاريخ فإن المجتمع هو الذى يبرز التأثير التاريخى للفرد ويتفاعل معه ، وهنا نتخذ من الأحداث محوراً للتاريخ . بينما يكون هذا المحور فى السيرة هو الإنسان نفسه .

فالسيرة كالقصة .. تعرض للمشكلة فى حياة الإنسان أو الصورة فى مجتمع يعيشه .

ومن هنا يبدو يسيراً على الأديب القصاص أن يكتب سيرة تاريخية ، ولا أدل على ذلك من أن أعظم مؤرخى السير .. هم الذين يملكون فى الأصل موهبة الأديب الفنان ، فما زالت السيرة قصة إنسانية تعج بالأحاسيس والانفعالات والمواقف والأحداث التى يقتنصها كاتب السيرة ليضفى عليها الحيوية ويبعث فيها النشاط .

تبقى بعد ذلك مسألة هامة وهى « الموهبة القصصية » وإلى أى حد

تتحكم فى المؤرخ أو فى القصاص ، فتسوق كلا منهما إلى المنهج الذى يرتضيه وينفرد به — « مؤرخاً » أو « قصاصاً » — أو يجمع بين الاثنين معاً فيكون مؤرخ سيرة وكاتب قصة . . وهى قدرة لا ينفرد بها إلا من أوتى موهبة الفنان ولمسة العالم .

وقد كان الدكتور هيــــكل يجمع بين الميزتين معاً . . ميزة المؤرخ العالم ، وميزة الأديب الفنان ولا أدل على ذلك من أن الدكتور حسين فوزى النجار يقول فى هذا الصدد : « كانت سيرة جان جاك روسو التى كتبها الدكتور محمد حسين هيكل فى مطلع حياته بعد أن كتب زينب بسبع سنوات خليطا ولا أقول مزيجاً من التاريخ والأدب يقف فيها الأثر الفنى لروسو فى ناحية وسيرته فى ناحية أخرى . . . »

والسؤال الآن حول هذا الحافز النفسى الذى كان يجذب الدكتور هيكل إلى التاريخ هاوياً فى البـــداية حيث كان يحاول أنه يضفى حلو الأدب وروعة التاريخ ، ثم باحثاً فى التاريخ يعتلى قمته بين مؤرخى التراجم والسير فى العصر الحديث ؟

لعل الحافز النفسى الذى كان يسير به فى ركاب التاريخ هو الجاذبية للعمل العظيم وليس لعبادة البطل ، عبادة العمل العظيم الذى يضفى على الحياة كل خير وبهاء ، ويتوج الفكر الإنسانى بجلال الحق وروعته ، يحل عند الدكتور هيكل محل عبادة البطل .

جاذبية التاريخ لدى الدكتور هيكل هى فى عمل عظيم يعود على الإنسانية بالخير ، ويدنو بها من الكمال .

وتكون جاذبية التاريخ أشد ما تكون قوة إذا ما اتصلت أسبابها بنفوسنا أكمل اتصال، فكلما ازداد الإنسان بما حوله من صور الحياة إمتزاجاً، إزداد بهذا الامتزاج حياة وازداد بذلك تجدداً. وإذا كان حسناً وواجباً أن يمتزج الإنسان بالماضى وأن يجد هذا الماضى طى الكتب، فأحسن منه أن يمتزج بالحاضر فى كل مظاهر هذا الحاضر ليجمع بين الماضى والحاضر كاملين، وليجدد بذلك المستقبل صوراً أقوى ما فيها من المظاهر الجديدة شخصيته هو الدائمة التجدد. وأنت أكثر ما تكون قوة على الامتزاج بالحاضر والماضى وعلى التجديد فيهما تجديداً تبرز فيه شخصيتك قوية ظاهرة إذا كان هذا الماضى هو ماضى بلادك، وكان هذا هو حاضر بلادك نفسها بما فيها من حياة وجدة وجمال، فإذا استطعت بعد ذلك أن تتصل بغير بلادك لتتمثل مافيها من جمال وتجليه على غيرك، أو استطعت أن تكون أوسع مدى، فاختلطت نفسك بنفس الإنسانية كلها وترنمت عن إيمان صادق بأناشيد الخلد فى وحدة الوجود، فقد بلغت الذروة من مراتب الإلهام.

هذا المنهج الذى أرساه الدكتور هيكل لأبدع أدب قومى يلهمه التاريخ وتلهمه البيئة ويمتزج فيه الحاضر بالماضى لا يختلف كثيراً عن التاريخ فى مناهجه وغاياته. فالتاريخ — كما يقول بندتو كروتشى — هو تاريخ الحاضر، فنحن لانبغى حقاً من دراسة التاريخ غير التعرف على الإطار الذى نعيش فيه ومعرفة أصوله.

ولا يتسنى لنا معرفة الحاضر وتفسيره مالم ندرك الماضى بالبحث

فى حقيقة وجوده . والواقع أن كل مايتناوله التاريخ بالبحث حاضر موجود أما مامضى وانقطع وجوده فلا سلطات للتاريخ عليه ، وأقدر الناس إذن على كتابة التاريخ وأجدرهم به هم صانعوه وأصحابه . إذ أن الشعور والإحساس يمتدان بهم إلى أبعد أغوار تاريخهم من القدم ، فما زال الإنسان يحمل فى أعماقه تراث ماضيه مهما بعد هذا الماضى أو عفت آثاره وفى هذا المعنى يقول الدكتور هيكل :

« إن المصريين الذين يتقدمون إلى ميدان البحث فى الشئون المصرية القديمة ، أوفى إلى التوفيق به من أبناء أية أمة أخرى يتقدمون إليه ، ذلك أن غير المصريين إنما يترجمون مالا يتصل بحياتهم ، وبما لا تسرى روحه فى قلوبهم وأفئدتهم فلهم إن أخطأوا عذر المترجم الذى ينقل من لغة إلى لغة . أما المصريون الذين يوفقون لمثل ما وفق إليه أولئك الغربيون العظماء من براعة فى الوقوف على أسرار المصريين القدماء فإنهم حين يترجمون آثار هذه العصور القديمة يشعرون فى غور وجودهم بما يتفق وهذه الصور والأخيلة والمعانى فيؤدونها الأداء الأوفى . . »

وما يجرى على التاريخ القديم هذا الذى حدثنا عنه **الدكتور هيكل** يجرى أيضاً على تاريخ غيره من العصور ؛ وأقدر الناس على كتابة تاريخ أمة من الأمم هم أبناء تلك الأمة مع ملاحظة أن يسموا المؤرخ بحوافزه ومشاعره عن الإطار الإقليمى الضيق إلى ماتسع الإنسانية من آفاق الوعى والإحساس الكلى الجامع .

وبناء على هذا الأساس كانت **للدكتور هيكل** محاولات فى عالم

للتاريخ هى فى واقع الأمر محاولات أديب يرى فى أحداث التاريخ مايلهم أدبه أجمل الصور والمعانى .

وها هو يضع لكتابة السير منهجا يعتبر أقرب المناهج إلى الطريقة العلمية فى كتابة السير . وكان ذلك حين كان يظن أنه أبعد الناس عن إقتحام ميدان البحث التاريخى ففى عام ١٩١٦ نشر بضع مقالات فى مجلة السفور عن قاسم أمين ، عرض فيها لغاية التاريخ وللمنهج العلمى الذى تقوم عليه كتابة السير ، فلم تعد غاية التاريخ إن يلم بمواليد الملوك ووفياتهم وما يقومون به من الغزو والفتح فليس هو وحده الذى يقوم بتقييم حياة الأمم فقد ثبت للمؤرخين أن قيام الملوك ونزولهم عن عروشهم وما يتخلل ذلك من الحروب ليس إلا مظهراً من مظاهر هـــذه الحياة . خصوصاً بعد أن دك عرش الاستبداد . وقامت الديمقراطية حاكمة آخذة بيدها النهى والأمر ، وإنما قوام حياة الأمم مميزاتها من أخلاق وعادات وتقاليد وعقائد وآمال ، تلك مجموعة المظاهر التى تصدر عن الأمة والتى تقوم عليها الحكومات والملوك والحروب ، من يوم أن ثبت ذلك لعلماء التاريخ فى أوربا وجهوا عنايتهم الخاصة لبحث كافة المظاهر التى كانت تصدر عن المجموع الذى يريدون تعرف ماضيه ، فلم يتركوا أثراً يهدى لبعض هذه المظاهر إلا قفوه ، وبذلك أمكن لهم أن يرسموا فى التواريخ التى وصفوها صوراً مضبوطة من تلك الأمم واستطاعوا من بعد ذلك أن يربطوا الحاضر بالماضى وأن يقدموا بذلك لأنفسهم ولغيرهم من المفكرين وعلماء الاجتماع مادة جيدة غزيرة يمكن معها رسم أقوم الطرق للوصول إلى أحسن مايرجى فى المستقبل . . . » .

وبعد أن يحدد **الدكتور هيكل** غاية التاريخ على ما يجمع عليها فلاسفة التاريخ فى القرن الأخير . نراه يضع لنا منهجاً علمياً لكتابة السير يقول فيه : « من أجل درس رجل من الرجال فيلسوفا كان أو كاتبا ، أو شاعرا يجب قبل كل شىء تعرف الوسط الذى عاش فيه ، والحال النفسية الخاصة به ، حتى نعلم تأثير هذه البيئة المعينة على هاته النفس المعينة فإذا تم ذلك تفسر الفيلسوف أو الكاتب أو الشاعر إلى حد كبير . . » ويحدد **الدكتور هيكل** هذه البيئة بما دعاه « الوسط الاجتماعى » أو « الوسط الطبيعى » .

ويمضى **الدكتور هيكل** على هذا المنهج فى رسم الصورة التى يراها وافية **لقاسم امين** ، ولكنه بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات يعود إلى ترجمة قاسم أمين ويكون قد استوفى من القدرة على البحث والتحليل والعمق ما يرتفع به إلى القمة بين كتاب السير .

**والدكتور هيكل** كأديب فنان . ليست كل صور التاريخ مما يجذبه ويستثير وجدانه ، إن الذى يجذبه تلك الصور التى تتصل بفكره عن الوجود ، وهى الصور التى تحفل بمعانى الحق والخير والجمال . فالفكرة التاريخية هى التى تلهمه على أن تكون صدى لأحاسيس وجدانه ومشاعره ، أو تتصل بنفسه بصورة من صور الوفاء ، الوفاء للوجود التاريخى ، أو الوفاء لمن مست حياته حياتهم ، فإن جلال الفكرة التى تتضمنها صورة التاريخ لاتقيم فى ذهنه ولا تغيب عن وجدانه ، بل إنها لتفور جميعاً من نبع واحد هو تلمس الحق أو الخير أو الجمال فى كل صورة من صور التاريخ تجذبه إليها .

وتحمل هذه الجاذبية التاريخية الدكتور هيكل إلى ميدان أكثر جمالا ونورا وجلالا . . اجتمع إليه فيه « عبادة البطل » فى التاريخ لكارليل ، و« عبادة العمل العظيم » كما يرى التاريخ الحديث . فكانت « حياة محمد » .

وبكتابه « حياة محمد » اقتحم الدكتور هيكل ميدان يتصل بقلبه وإحساسه ومشاعره اتصالا يتجاوز العاطفة الدينية إلى آفاق رائعة من عبادة الخير والحق والجمال ، ويوم أن اقتحم هذا الميدان اتهم بالرجعية ، فقد حسب من اتهموه كما يقول فى مقدمة كتاب **فى منزل الوحى** أنه انقلب بكتابة السيرة رجعيا : « وكنت عندهم قبلها فى طليعة المجددين وكيف لا أنقلب عندهم رجعيا وقد جعلت القرآن حجتى وما جاء فيه عن السيرة سندى ، ولم أضعه كما يقولون موضع النقد العلمى ، وكيف لا أنقلب عندهم رجعياً وقد دفعت بالحجة ما طعن به على النبى الكريم جماعة من المبشرين وأخرى من المستشرقين ومن تابعهم من شباب المسلمين . وكيف ساغ لى بعد ذلك أن أزعم أمامهم فى **حياة محمد** ، وأنا أزعم اليوم هاهنا أننى طليق من القيود عدو للجمود ، نصير للبحث العلمى الحر ، وأننى أومن بحرية الرأى ، وأعتبرها الأساس ، لا أساس غيره ، لمن يريد معرفة الحقيقة هم يرون ذلك خداعا يأباه العلم والبحث الحر ، وأنا بعد ، عندهم رجعى انقلبت إلى الجمهور أتابعه إبتغاء رضاه ، وكنت قبل ذلك أتقدمه أريد توجيهه وهدايته . . . » .

ويتحدث الدكتور هيكل عن منهجه العلمى الذى إقتفاه فى « حياة محمد » وسار عليه فى « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » فيقول :

« لست مع ذلك أحسبنى أوفيته على الغاية من البحث فى حياة محمد — بل لعلى أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة العلمية الحديثة ، وتقتضيك هذه الطريقة العلمية إذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة فى هـــذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقومات العلمية ، فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية ، لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر » .

وهذه الطريقة العلمية التى يخبرنا بها الدكتور هيكل بأنها أحدث ما وصلت إليه الأوساط العلمية فى أوربا هى فى واقع الأمر طريقة القرآن حين جعل العقل حكما والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد ، وذم المقلدين وأنب من يتبع الظن حين قال سبحانه وتعالى — إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً — وعاب تقديس ما عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها . وهى أيضاً طريقة محمد صلى الله عليه وسلم وأساس دعوته لو رجعنا إليها . .

إلى جانب أنها كانت طريقة القرآن والدعوة الإسلامية فهى طريقة سلف المسلمين . فها هو الإمام الغزالى يقرر فى أحد كتبه : « أنه جرد نفسه من جميع الآراء ، ثم فكر وقدر ورتب ووازن ، وقرب وباعد وعرض الأدلة وهذبها وحللها ، ثم اهتدى بعد ذلك كله . فهى طريقة قديمة فى الشرق الإسلامى . . نسيها المسلمون بعد أن فشا التقليد وأهدر

العقل ، فأبرزها الغربيون فى ثوب ناصع وأفادوا منها فى العلم والعمل — على نحو ما يعرفه جيداً طلاب الفلسفة من تأثير ديكارت وغيره من المفكرين الذين يعتبرون آباء للنهضة الأوربية المبلية أساسا على العلم بالمفكرين الإسلاميين وعلى الأخص الإمام الغزالى — هكذا بعد أن كانت هذه الطريقه طريقتنا فى البحث العلمى رجعنا لنأخذها من غيرنا ، ونراها طريقة فى العلم جد حديثة كما يقول الدكتور هيكل .

وبهذا المنهج الإسلامى قديماً ، الأوربى حديثاً والقائم على الاستقراء والتحليل والموازنة استطاع هيكل أن ينق السيرة من الشوائب التى دخلت عليها لحقم المنهج التاريخى القديم الذى يقوم على الرواية والتواتر دون أن يعنى بالفحص والتمحيص وهو ماحمل عليه « ابن خلدون » فى مقدمته وضرب أمثلة له مما حفلت بها كتب التاريخ من تهاويل لا يقبلها العقل أو مبالغات لايسيغها . . وأن يمضى بعدها مؤرخا للإسلام فكتب « فى منزل الوحى » و « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » و « الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة فى الشرق » و « عثمان ابن عفان » ، وأغلب الظن أنه كان سيمضى فى التأريخ الإسلامى ومن ثم قصة الحضارة العربية فى ملحمتها المأثورة إلا أن الزمن لم يطل به حتى يتمم هذه الأمنية العزيزة .

الصفحات التالية تناقش هذه الأعمال الإسلامية التى تركها الدكتور هيكل وهى « حياة محمد » و « فى منزل الوحى » و « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » و « عثمان بن عفان » و « الإمبراطورية الإسلامية » .

# حياة محمد

يبدأ الدكتور هيكل كتابه بالحديث عن الحضارات القديمة التى نشأت فى الشرق وكانت ذات طابع دينى مما أهل هذه المنطقة من العالم لتكون مهد الرسالات السماوية والديانات الوضعية كالمجوسية وغيرها ثم يشرح كيف انحلت هذه الديانات وتحولت إلى فرق متناحرة ودول متطاحنة تقف بينها جزيرة العرب محصنة بصحرائها وإن كانت اليهودية والمسيحية والمجوسية قد عرفت الطريق إلى أطرافها فى الشمال والشرق والجنوب . وتجتمع وكل هذه الظروف فى النهاية لتمهد لدين جديد يخرج من بلاد العرب يعيد اكتشاف الحقيقة التى طمرتها النصوص والشكليات والمجادلات والحروب الطاحنة . ولتمزق العزلة عن جزيرة العرب التى ظلت بمنأى عن الامبراطوريتين المتحاربتين امبراطورية الروم وامبراطورية الفرس كأنما كانت السماء تعدها لترثهما برسالة جديدة تحل فيها محل المذاهب المنهارة ولتعيد الحقيقة والسلام إلى الأقطار الداخلة فيهما .

ولد محمد فى فترة من تاريخ جزيرة العرب أخذت فيها القوى المحيطة بها تعمل على اختراق عزلتها وتمزيق سكينتها . ففى عام مولده ٥٧٠ م حاول الأحباش المسيحيون أصحاب الفيل بمساندة الروم البيزنطيين أن يدمروا الكعبة ويستذلوا العرب ، وفى شبابه وقعت معركة « ذى قار » بين عرب وائل فى الشرق وبين الفرس فى أوائل القرن السابع الميلادى

والآراء تختلف فى تاريخ ميلاده . فأكثر المؤرخين يقولون أنه ولد عام الفيل ٧٥٠ م ويقول آخرون أنه ولد قبل الفيل بخمس عشرة سنة ويذهب غير هؤلاء إلى أنه ولد بعد الفيل بأيام أو بأشهر أو بسنين يقدرها قوم بثلاثين ويقدرها قوم بسبعين ، ويرجع آ-سان وبرسفال فى كتابه عن العرب أن محمداً ولد فى أغسطس سنه ٥٧٠ م وكان أبوه عبدالله قد توفى وهو جنين فى بطن أمه آمنة بنت وهب التى دفعته بعد ولادته إلى حليمة السعدية لينشأ فى البادية على عادة أشراف مكة إذ يبعثون أبناءهم إلى البادية فى اليوم الثامن من مولدهم ثم لايعودون إلى الحضر حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة ، لكن محمداً بقى فى بادية بنى سعد إلى الخامسة فحسب ثم عاد إلى أمه لتحتضنه عاماً ثم تلحق أباه فينتقل الصبي اليتيم إلى كفالة جده عبدالمطلب « حتى إذا صار فى الثامنة رحل جده هو الآخر عن الدنيا فانتقل محمد إلى كفالة عمه أبى طالب ولايزال معه إلى أن يبلغ الثالثة والعشرين ويتزوج خديجة ويستقل ببيته معها .

والدكتور هيكل يهتم كثيراً بتصوير ماتلقاه النبي عن البادية التى « لايعرف جوها الصحو » قيداً من قيود الروح ولا من قيود المادة » . وكيف كان ينهل « فى جو الصحراء الطلق روح الحرية والاستقلال النفسى ويتعلم من هذه القبيلة لغة العرب مصفاة أحسن التصفية حتى لقد كان يقول من بعد لأصحابه « أنا أعربكم ، أنا قرشي واسترضعت فى بنى سعد بن بكر » وتركت هذه السنوات الخمس فى نفسه أجمل الأثر وأبقاه » .

ويظل محمد يتعلم من الصحراء ويتأملها كلما خلا إليها فى رحلة أو

أوغدوه ، فعندما كان فى الثانية عشرة خرج مع عمه الى الشام « فى هذه الرحلة وقعت عينا محمد الجميلتان على فسحة الصحراء وتعلقت بالنجوم اللامعة فى سمائها الصافية البديعة وجعل يمر بمدين ووادى القرى وديار ثمود وتستمع أذناه المرهفتان الى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضى نبئها . وفى هذه الرحلة وقف فى بلاد الشام عند الحدائق الغناء اليانعة التى أنسته حدائق الطائف ومايروى عنها والتى تبدت له جنات الى جانب جدب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء فيما حول مكة . وفى الشام كذلك عرف محمد أخبار الروم ونصرانيتهم ، وسمع عن كتابهم وعن مناوأة الفرس من عباد النار لهم وانتظارهم الوقيعة بهم . ولئن كان بعد فى الثانية عشرة من سنه فلقد كان له من عظمة الروح وذكاء القلب ورجحان العقل ودقة الملاحظة وقوة الذاكرة وما الى ذلك من صفات حباه القدر بها تمهيداً للرسالة العظيمة التى أعده لها ماجعله ينظر الى ماحوله ومن حوله نظرة الفاحص المحقق . فلا يستريح الى كل مايسمع ويرى . فيرجع الى نفسه يسائلها : أين الحق من ذلك كله ؟ » .

ثم يعود الى الصحراء وهو يرعى الغنم ، وراعى الغنم الذكى القلب يجد فى فسحة الجو الطلق أثناء النهار وفى تلألؤ النجوم اذا جن الليل موضعاً لتفكيره وتأمله يسبح منه فى هذه العوالم ، يبتغى أن يرى ماوراءها ، ويلتمس فى مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخلقه وهو يرى نفسه مادام ذكى الفؤاد عليم القلب بعض هذا الكون غير منفصل عنه . أليس هو يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه قضى ! أليست تحييه أشعة

الشمس ويغمره ضياء القمر يتصل وجوده بالافلاك والعوالم جميعاً، هذه الافلاك والعوالم التى يرى فى فسحة الكون أمامه ، متصلا بعضها ببعض فى نظام محكم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار !! وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد يقتضى انتباهه ويقظته حتى لا يعدو الذئب على شاة منها ، وحتى لا تضل إحداها فى مهامه البادية ، فأى انتباه وأية قوة تحفظ على نظام العالم كله أحكامه .

ثم هاهو ذا يبلغ سن الشباب فيشتغل بالتجارة ويتزوج خديجة ويشارك أهل مكة فى حياتهم العامة ويصبح من عادته - كما من عادتهم - أن ينقطع للتأمل والتماس الحكمة زمناً من كل عام يقضيه بعيداً عن الناس فكان يذهب إلى غار فى جبل حراء بالقرب من مكة ليقيم فيه شهر رمضان من كل سنة مكتفيا بالقليل من الزاد يحمل إليه معنا فى التأمل والعبادة ، وهو لم يكن يطمع فى أن يجد فى قصص الأخبار وفى كتب الرهبان الحق الذى ينشد بل فى هذا الكون المحيط به : فى السماء ونجومها وقمرها وشمسها وفى الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء ، وساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندى . وفى البحر وموجه وفى كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود . فى هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا ... فما هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق ولا ترزق ؟ وأين الحق ؟ أهو فى الكواكب المضيئة ؟ أهو فيما وراءها من أثير ؟ ولكن ما الأثير ؟ وهذه الحياة

التى نحيا اليوم فتنتضى غداً .. ما أصلها وما مصدرها ؟ أمصادفة تلك التى أوجدت الأرض وأوجدتنا عليها ، لكن للمياه وللأرض سننا ثابتة لاتبديل لها ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها ، وما يأتى الناس من خير أو شر فيأتونه طواعية واختياراً ، أم هو بعض سليقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه ؟ فى هذه الأمور النفسية والروحية كان محمد يفكر أثناء انقطاعه وتعبده بغار حراء ، وكان يريد أن يرى الحق فيها وفى الحياة جميعاً » .

ويأتيه الوحى وهو فى الأربعين .

هنا نرى أثر نظرية « الرجل الطبيعى » وتربية جان جاك روسور واضحة كل الوضوح فى تفسير النبوة وتهيؤ محمد لحمل الرسالة التى اختاره الله لها .

وإذا كان محمد يمثل الحق الذى يأتى عن طريق الاتصال المباشر بالكون والطبيعة فإن أهل مكة يمثلون المجتمع بما فيه من فساد واستبداد وبعد عن الحقيقة واستغراق فى الجمود والبلادة !

وها هو محمد يدعو عشيرته وأصدقاءه الأقربين إلى عبادة الله الواحد الأحد ويظل ثلاث سنوات يدعو سراً فلا يستجيب له إلا ثلاثة عشر نفراً من أهله وأصحابه ثم يأتيه الوحى أن يجهر بالدعوة فيصدع بما يؤمر داعياً للوحدانية والحرية والمساواة بين البشر والمسئولية الفردية والعمل الذى هو شفيع الإنسان أمام الله ، مبشراً بالبعث والحساب والحياة الآخرة والجنة والنار .

ولكن إشراف مكة يعرضون عنه ويستنكرون تعرضه لآلهتهم ويعذبون أتباعه ويغرون به سفهاءهم وشعراءهم وغلمانهم . ويطالبون بمعجزات كمعجزات موسى وعيسى ، أن يحيل جبل الصفا وجبل المروة إلى ذهب ، أو ينزل عليه الكتاب الذى يتحدث عنه مخطوطا من السماء ، أو يظهر لهم جبريل كما يظهر له ، أو يحيي الموتى ، أو يسير الجبال حتى لا تظل مكة حبيسة بينها ، أو يفجر ينبوعاً أعذب من ماء زمزم ، أو يتنبأ بأثمان السلع حتى يضاربوا على المستقبل ، ويرد الوحى بما أنزل على محمد : « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب ، لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

نعم ! ما محمد إلا نذير وبشير . فكيف يطالبونه بما لا يقبله العقل وهو لا يطلب إليهم إلا ما يقبله العقل بل ما يمليه ويحتمه ؟ وكيف يطلبون إليه ما تأنف منه النفس الفاضلة وهو لا يطالبهم إلا أن يستجيبوا لوحى النفس الفاضلة ؟ وكيف يطلبون إليه المعجزات وهذا الكتاب الذى يوحى إليه والذى يهدى إلى الحق معجزة المعجزات ؟ ! وما لهم يطلبون إليه إثبات رسالته بالخوارق ليترددوا من بعد ذلك أيتبعونه أم لا يتبعونه . وهذه التى يزعمونها آلهتهم ليست إلا حجارة أو خشباً مسندة أو أنصابا قائمة فى عرض الفلاة لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً ، وهم مع ذلك يعبدونها دون أن يطلبوا اليها ما يثبت ألوهيتها ! ؟ » .

ان الدكتور هيكل يحقق ما رواه بعض المؤرخين وخاصة المتأخرين منهم عن معجزات وفوارق أتى بها النبى العربى كقصة شق الصدر وفيها

أن ملكين أتياه وهو لم يبلغ الثالثة من عمره فى بادية بنى سعد فأضجعاه وشقا صدره واخرجا قلبه فطهراه من علقة سوداء كانت به وأعاداه مكانه فعاد الصدر كما كان . . ورحلا .

يقول الدكتور هيكل ان المؤرخين يختلفون حول هذه القصة اختلافا شديداً فبعضهم يروى القصة على لسان طفل لحليمة السعدية كان أخا لمحمد فى الرضاعة وكان عمره اذ ذاك من عمر محمد لا يزيد عن السنتين الا قليلا فروايته يجب أن تؤخذ بحذر . والرواية تقول أن حليمة عادت بمحمد أثر ذلك لأمه رغم ان كتب السيرة تجمع على أنها عادت به الى أمه وهو فى الخامسة وهذا تناقض غير مقبول . وابن سحاق يروى فى هذه الواقعة حديثاً عن النبى بعد بعثه ، لكنه يحتاط ويقول أن السبب فى رده الى أمه لم يكن حكاية الملكين وانما كان على ما روته حليمة أن بعض نصارى الحبشة رأوه وتنبأوا له بشأن كبير وأرادوا أن يأخذوه معهم الى النجاشى فى الحبشة . والطبرى يروى القصة لكنه يقول مرة أنها وقعت لمحمد وهو فى تلك السن المبكرة ثم يعود فيذكر أنها وقعت قبيل البعث وسنه أربعون سنة .

وينتهى الدكتور هيكل من بحث قصة الملكين الى أنها ضعيفة السند وأن المستشرقين وجماعة من المسلمين لا يطمئنون اليها .

وهكذا يفعل الدكتور هيكل فى باقى الخوارق والمعجزات التى تستحق التشكيك والرفض والتى رفضها القرآن كما رفضها محمد نفسه . ففى السيرة أنه وقع كسوف للشمس يوم مات ابراهيم بن النبى فقال بعض الصحابة أنها انكسفت لموت ابراهيم وأنها معجزة . لكن النبى الكريم

وسول العقل والحقيقة رد عليهم قائلا : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله فلا تنكسفان لأحد » .

حتى اذا وصل الدكتور هيكل الى قصة الإسراء والمعراج التى وردت فى القرآن قال ان فى العلم الحديث ما يقر الإسراء والمعراج بالروح كانتقال الأصوات عبر الأثير ونظريات قراءة الأفكار « مما كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيـال ، ولم يكن العرب من أهل مكة ليستطيعوا ادراك هذه المعانى لذلك ما لبث محمد حين حدثهم بأمر أسرائه ان وقفوا عند الصورة المـادية من أمر هذا الإسراء وامكانه وعدم امكانه ، وحتى ساور أتباعه الذين صدقوه أنفسهم بعض الريب فيما يقول » فالدكتور هيكل يتفق مع جماعة من المسلمين يقولون أن الإسراء والمعراج بالروح لا بالجسد .

هكذا يغلق الكاتب الباب على بعض المستشرقين الذين وجدوا فى قصص الخوارق والمعجزات مادة للطعن فى محمد وفى الإسلام معلناً أن معجزة الرسول الحقيقية هى القرآن ليواجههم بعد ذلك فيما زعموه للنبى من أخطاء فى حياته العامة او فى حياته الخاصة كما قالوا بالنسبة لحديث « الغرانيق » المزعوم ، ومسألة القتال فى الإسلام وزعمهم ان الإسلام انتشر بالسيف ، ومسألة تعدد زوجات النبى وقولهم ان محمداً كان مسرفاً فى المتعة الجسدية .

ومن عجب ان بعض المؤرخين القدامى الذين لم يترددوا فى نسبة الخوارق للنبى وتصديقها ظانين ان النبوة لا تكتمل الا بها ، هم انفسهم الذين اثبتوا روايات عن خطأ فادح زعموا ان النبى قد وقع فيه حينه

أوردوا حديث « الغرانيق » الذى اخذ به جماعة المستشرقين واستغلوه أسوأ استغلال فى الطعن على النبى واتهامه بالتراجع امام قريش ، معتمدين فى ذلك على ماوراه ابن سعد والطبرى وآخرون من المؤرخين والمفسرين المسلمين .

ومجمل هذا الحديث أن محمداً لما رأى ضراوة قريش فى حربه وحرب من تبعه من المسلمين مال إلى مهادنتهم بأن يذكر آلهتهم بخير ، فجلس يوماً فى مجلس حول الكعبة وقرأ على القرشيين سورة « النجم » حتى إذا بلغ الآية « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » أضاف من عنده مجاملة لقريش آيتين فقال : « تلك الغرانيق العلى ، وأن شفاعتهن لترتجى » وسجد فسجد معه القرشيون .

والدكتور هيكل يدخل فى جدل رائع مع هؤلاء المؤرخين والمفسرين المسلمين ومع المستشرقين الذين أخذوا بهذه القصة ليثبت فى النهاية تفاهتها وكذبها .

إن القدماء الذين أثبتوها يروونها روايات متعددة . وابن اسحاق صاحب اقدم كتاب فى السيرة لايتردد حين يسال عنها فى القول بأنها من وضع الزنادقة . إلا أنها لا تستقيم مع ما عرف عن محمد من الصدق والأمانة ومع ما يجب للرسل من عصمة . وحجة أخرى ساقها من قبل الإمام محمد عبده تعتمد على التحليل اللغوى ، فالغرانيق اسم طائر مائى أسود أو أبيض أو هى صفة الشباب الجميل ، ولم يحدث أبداً أن العرب القدماء وصفوا آلهتهم بها ، فلا شىء من صفتها يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب .

وكما يفند الدكتور هيكل هذه القصة يفند غيرها من القصص والأحكام الجائرة التى طعن بها المستشرقون فى محمد وخاصة فى تلك المرحلة من حياته التى تبدأ بعد الهجرة إلى المدينة حين لم يقتصر على أن يكون داعياً ومبشراً فحسب ، بل صار الى جانب هـــذا قائداً وصاحب دولة .

لقد أخذ هؤلاء المستشرقون على محمد أنه أخذ يفرض الإسلام فرضاً بالسيف وأنه كان عنيفاً إلى حد القسوة مع اليهود وهذا لا يتفق مع ما يجب فى الدعوة إلى الله من مخاطبة القلوب والعقول .

ويرد الدكتور هيكل على هذا بأنه ليس من المتصور أن يقوم دين بالسيف . لأنه ليس من المتصور أن يحمل صاحب هذا الدين سيفاً ثم يسوق أمامه أمة إلى الإيمان به مرغمة! ولا بد أن هذا الذى حمل السيف استطاع قبل ذلك أن ينجح فى الدعوة اليه بالرأى والحجة حتى صار للمؤمنون قوة تستطيع أن تحمل السيف بعد ذلك وتنتصر به . هـذا أولا . ثم أن المسلمين بعد ذلك لم يحملوا السيف إلا بعد أن اضطروا للهجرة مرتين فراراً بدينهم تاركين أهلهم ووطنهم وأموالهم متوقعين مهاجمة القرشيين لهم وتآمر المنافقين من أهل يثرب عليهم شاعرين بالظلم الذى أصابهم بالطرد واغتصاب المال واقامتهم فى يثرب عالة على الانصار بينما قوافل قريش تروح وتجىء ما بين مكة والشام وفيها أموال مغتصبي أموالهم ، فلم لا يستردون شيئاً من أموالهم رداً للعدوان وتأهبا لما قد تفعله قريش أو يفعله المنافقون وحلفاؤهم فى يثرب ؟

هذه هي أهم الأسباب التي دفعت المسلمين الى خوض غزوة بدر .
وبين بدر وفتح مكة عدة غزوات كان القرشيون وحلفاؤهم هم البادئون بالحرب فى معظمها كما فى غزوة أحد وغزوة الخندق .

واذن فالاسلام لم يرفع السيف إلا دفاعاً عن النفس « والإسلام ليس دين وهم وخيال ، ولا هو دين يقف عند دعوة الفرد وحده إلى الكمال ، إنما الاسلام دين الفطرة التى فطر الناس جميعاً عليها أفراداً وجماعات . وهو دين الحق والحرية والنظام . ومادامت الحرب فى فطرة الناس فتهذيب فكرتها فى النفوس وحصرها فى أدق الحدود الإنسانية هو غاية ما تحتمل فطرة البشر وما يحقق للإنسانية اتصال تطورها فىسبيل الخير والكمال،وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون إلا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأى والدعوة إليه ، وان ترعى فيها الحرمات الإنسانية » .

وأما موقف النبى من اليهود فهو يشهد بحلمه وسعة صدره واحترامه ومودته لكل صاحب دين وماهو يخالفهم ويعقد معهم معاهدة صداقة وتحالف وتقرير لحرية الاعتقاد ولكنهم رغم هذا كادوا للنبى بعد أنه أسلم بعض زعمائهم وألبوا عليه قريشاً .

وحين نصل الى اتهام النبى بحب النساء اعتماداً على أنه تزوج تسع زوجات ما فسره بعض المؤرخين المسلمين على أنه فحولة جسدية ظانين أن ذلك نوع من الكمال وتبعهم المستشرقون فى هذا التفسير فقالوا أنه أسراف فى المتعة الجسدية.هنا يرد الدكتور هيكل ردوداً ناصعة يبدؤها

بالتساؤل هل يمكن أن نتهم محمد بالاسراف فى المتعة الجسدية وقد عاش منذ أن كان فى الثالثة والعشرين الى أن بلغ الخمسين مع امرأة تكبره بخمسة عشر عاماً على حين كان تعدد الزواج أمراً شائعاً بين العرب فى ذلك الحين. ثم يمضى مفندا المزاعم والأباطيل فى حجة ومنطق .

## فى منزل الوحى

بعد أن انتهى **الدكتور هيكل** من كتابه « **حياة محمد** » قال لنفسه سأظل ينقصنى جوهر ما أبحث عنه إذا أنا لم أذهب إلى بلاد النبى العربى بنفسى وأقف حيث وقف وأحيط فى حدود الطاقة بالبيئة العامة التى نشأ فيها النبى صلى الله عليه وسلم . . فلما ذهب إلى الحجاز وشاهد ما أراد ذكر « رأيت من الخير أن أطالع القراء بكتاب مستقل يتناول ما رأيت ويتناول ما أحسست به حين كررت بالزمن راجعا إلى عهد الرسول وما كان بعد ذلك من حياة المسلمين فى عهدهم الأول ، ثم ما أصاب البلاد الإسلامية المقدسة بعد ذلك إلى وقتنا الحاضر ، مع الإشارة الموجزة إلى ما أرجو أن يكون القدر قد خطه فى لوحة لهذه البلاد يوم ينصر الله دينه على الدين كله » .

وهكذا رحل الدكتور هيكل ليرى آثار الرسول الكريم ، ويسير حيث سار ملتمساً ما فى حياته من أسوة وعبرة ويعود ويسجلها فى كتابه الضخم « فى منزل الوحى » وهاهو يشير فى مقدمته الى ملاحظة هامة وهى الخاصة بقلة ما كتب عن بلاد النبى عليه السلام على الرغم مما لذلك من قيمة علمية . . تكشف الغطاء عن حقيقة هذه

البلاد التى شاهدت الرسالة المحمدية والتى اختارها القدر لتكون منزلا للوحى والرسالة، على نحو يقنع تفكير العصر الذى نزلت فيه هذه الرسالة.

ولهذا بدأ الدكتور هيكل يقرأ كل ما كتبه من سبقه الى زيارة هذه البلاد خاصة الرحالة ومنهم المستشرقون، وما كتبه السلف عن المسلمين الأوائل .

وكان نتيجة قراءات هذا الكتاب الضخم الذى يصور فيه رحلته تصويرا دقيقاً متناولا الجزئيات والتفصيلات والوقفات التى وقفها فى بلاد الوحى ومنزله مستوحياً فيها مواقف الرسول بعد أن تجرد من نفسه وكر العصور يطويها متمثلا الهادى الكريم والمسلمين من حوله . . فكأنما الكتاب رحلة روحية لا يكتفى المؤلف فيها بالوصف الحى بل نجد نوعا آخر من الوصف الأدبى يمكن أن نسميه بالوصف الروحى، وهو قريب من أوصاف الصوفية وتخيلاتهم لمنازل الوحى وأماكن النبوة، وذلك حين يستعيد فى ذهنه وعلى الصفحات صورة الرسول فى غدوه ورواحه بين قومه وعشيرته أو موقفه فى غار حراء يتلقى أوامر ربه يناجى خالقه سبحانه وتعالى .

وتحس بالصفاء والروعة ـ حين تقرأ هذا الوصف ـ كأنما أنت المشاهد والرائى حين تطوى صفحات الكتاب العديدة التى تبين كثرة الاستطردات والمجادلات التى يلجأ اليها الدكتور هيكل فى كتابه هذا الذى يجمع بين جمال الأسلوب ودقة البحث الدينى والتاريخى .

والكتاب مقسم الى ستة أجزاء كبيرة . فى جزئه الأول يحدثنا

الدكتور هيكل عن السفر ويستهله بهذه الآية الكريمة .« **وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وماتدرى نفس بأى ارض تموت** »وكيف أن أسفار الكثيرين من أصدقائه تمثلها منذ أعلن عزمه الرحلة الى الحجاز حاجاً حتى ودعوه مسافرا . ثم يحدثنا عن وسيلة السفر وكانت وقتها بالبواخر الى أن يصل الى ميناء جدة ومن بعد ذلك دخوله مكة فى منتصف الليل ليؤدى العمرة . ويجىء يوم عرفات والتفكير فيما يجب قضاؤه من شعائر الحج بعد ذلك يصف لنا أيام التشريق على ما كان يسميها العرب فى القديم والتى نعرفها نحن بأيام النحر الآن .

وفى الجزء الثانى من الكتاب يحدثنا **الدكتور هيكل** عن البلد الحرام ويبدأ بمكة الحديثةفيقول :« أشرت لماماً إلى مارأيت بمكة أو نزولى بها وذكرت دار مضيفى ودار وزير المالية ، وقصر الملك وصورة عمارتها . ولقد حاولت أن أجد فيها وفى المنازل التى دعيت أثناء مقامى بمكة لزيارتها والمنازل التى نزلت بها بضواحى مكة ما أستشف منه روح العصر فى العمارة أو فى نظام الحياة فعدت من محاولتى مقتنعا بأن مكة القديمة الخالدة ما تزال بريئة من هذا الروح وأن لم يبق فيها كذلك شىء من الروح العربى القديم مما تحدثنا به تواريخ مكة من عدة قرون . وغاية ما يستشفه الإنسان من خلال الحياة فى أم القرى اليوم فذلك أن شبابها يصبو بكل وجدانه إلى الحياة الحديثة ، وأن هذه الصبوة لم تقمه بنفسه الابعد أن انفصل الحجازعن دولة الخلافة بالثورة التى أعلنها الحسين بن على والتى يسمونها عهد النهضة » .

وكل الذين يفدون إلى مكة هذه فى أشهر الحج يفدون للصلاة فى

المسجد الحرام . . حتى أنه فى يوم الجمعة يندر أن تجد هناك مسلما فى مكة ويصلى فى مسجد آخر غير المسجد الحرام فمن يقتنع بأن هناك مسجد أفضل من المسجد الحرام لحرام ؟ وصلاة الجمعة بالمسجد الحرام من أروع مظاهر الإيمان فى الجماعة الإسلامية . هذا الإيمان القوى فى بساطته ، البالغ فى قوته ، الذى يجمع بين الحرية والنظام جمعا لم أقف على ما يقرب من رفعته فى أى من المذاهب والنظم الحديثة أو القديمة التى اطلعت عليها ، ولقد رأيت فى أسفارى الكثيرة ببلاد يدين أهلها بغير الإسلام من شعائر العبادة ونظم الجماعة ما فيه مهابة ورهبة ونظام . ولقد حضرت صلاة الجمعة فى بلاد اسلامية شتى . ولكنى لم أر فى شىء من ذلك ما قد يقرب مظهره وقوة روعته ، وفى جمعه بين الحرية والنظام وبين الاعتداد بالذات والإسلام لله بما رأيت فى صلاة الجمعة بالمسجد الحرام ولم يطبع شىء من ذلك كله بغير الأثر العميق فى نفسى ما طبعته صلاة الجمعة بالمسجد الحرام من أثر بالغ عمقه . . » .

ثم يحدثنا عن الكعبة . . ومقام إبراهيم . . ومن بعدها زار آثار مكة ، ومنها دار الأرقم ودار أبى سفيان ، وغيرها من الآثار ، ويزور غار حراء وكم كان **الدكتور هيكل** فنانا حين يقدم بقلمه صورة ماشاهده عند حراء هذا المكان المقدس فيقول : « وحسبك أن تقف قبالة حراء وأن تتأمله لتتذكر هذا المشهد كله ولتراه مرتسما أمامك وكأنه حدث منذ عهد قريب . فها هو ذا محمد يسير وحيداً منفرداً حاملا من الذات ما ينوء رجل بحمله يخترق طرق مكة من جنوبها الشرقى حيث يقع اليوم شعب على ، وحيث كانت دار خديجة الى شمالها الشرقى حيث يقوم هذا الجبل وها هو ذا على سفح حراء يصـــعد اليه وسيماء التفكير مرتسمة على قسمات محياه وليس فيما حوله من أسباب الحياة مايرفه عن

تفكيره أو ينبهه الى جديد فى الحياة ويستمر تصعيده وزاده معه حتى يبلغ قمة الجبل . . هنالك يجد ماء المطر القليل قد اختزنته بعض أخاديد شعابه ويجلس على مقربة من هذا الماء ومن غار قريب منه هو مأواه أثناء نومه ويجيل بصره فيما حوله من خلق الله . . . » .

ثم يزور بعد هذا غار ثور . . ذلك الغار الذى احتمى به النبى صلى الله عليه وسلم من عدوه حين أزمع الهجرة الى المدينة ، ثم يقوم بجولة فى ظاهر مكة وبينها يرى آثار الاسلامية جد عظيمة ما زالت تحمل آثار وبصمات رجال الصدر الأول من الدولة الإسلامية .

ينتقل بنا الى جزئه الثالث وهو حول الطائف وآثاره وأول ما يحدثنا عنه هو طريق الطائف ووسائل المواصلات ومنها السيارات والدواب ، ثم يصل الى الطائف هذه المدينة التى تعتبر من أقدم المدن فى بلاد العرب ، ولعل **الدكتور هيكل** لا يخلو من أن يحسبها هكذا أقدم مدينة فى بلاد العرب اذا كانت هى بالفعل أقدم مدينة كما يروى المتقدمين من كتاب المسلمين ومفكريهم .

وينتقل إلى اسواق العرب . ولا يقصد بها اسواق العرب فى العصر الحديث ، ولا عن اسواقهم فى الجاهلية او صدر الإسلام وانما يقصد اسواقا ثلاثة هى ( عكاظ ) و ( مجنة ) و ( ذو مجاز ) .

والجزء الرابع وفيه يصف لنا طواف الوداع ويظل فى هذا المكان العظيم وقتاً من بعده يذهب الى مدينة الرسول حيث يقدم الجزء الخامس واول ما يتحدث فيه كان عن المسجد النبوى الشريف من بعده يحدثنا عن الآثار المقدسة الموجودة فى المدينة وامام الحجرة النبوية الشريفة

**هذه التحية : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ! نشهد ان نبي الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد في سبيله حتى أتم الله النصر لمدينه ، وانه وفى بوعده وأمر الا نعبد الا الله وحده لاشريك له ثم سلم على الصديق أبو بكر والفاروق عمر المدفونين في حجرة مجاورة.**

والحديث عن بدر وشهدوها أنها يبدأ بالجزء السادس من الكتاب الذى ينهيه بالحديث عن الحياة الروحية والمادية والفرق بينهما .

**وباختصار . . . « في منزل الوحي » تظهر لنا نظرة الدكتور هيكل الصحفية حيث يجعل القارىء يلزم معه برحلة الى هذه البلاد المقدسة من لحظة عزمه السفر ونيته ووصوله الى هذه البقاع المقدسة الى عودته وتفكيره أثناء ذلك في الحياتين المادية والروحية حيث يقول: « اما وقد شاهدت من مظاهر الحياة الروحية حينما سرت في أثر النبي العربي الكريم ما شهدت ورأيت كيف فعل الإيمان الاعاجيب تجيب في ميادين لولاه ما كان للانسان بها طاقة . . فما بال قوم في عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الايمان أفكان ذلك عنادا منهم وجهلا أم أضلهم هواهم وغرهم بالله الغرور ولولا ذلك لرأوا من آيات الله ، ومن فضله على عباده المؤمنين ما لا يغيب عمن تأمل في خلق الله ومن ألقى السمع وهو شهيد . . »**

## الصديق أبو بكر

المعروف ان الدكتور هيكل كان يضمر لأبطال الإسلام الأوائل قدراً من الحب والإعجاب لا كشخصيات كاملة الايمان فحسب بل كشخصيات تاريخية استطاعت ان تقيم امبراطورية عظيمة تثير الدهشة وتدعو الى العجب يستوى هذا الحديث بالنسبة لأبى بكر صديق الرسول وخليفته وحزمه الذى قضى على الردة اذن بالفتح الاسلامى

لتكوين الامبراطورية ونشر الدين الاسلامى الذى ارسل الى الناس كافة . . كل هذا حدث فى ثلاث سنوات اضطربت فى التاريخ لما كتب الرواة واهل الأخبار بالاضافة الى قلة ما يروى عن عهده . . كل هذا يجعلنا نقدر جهود الدكتور هيكل فى التاريخ لهذا العصر .

وكان الصديق ابو بكر فى راى هيكل صفى محمد عليه السلام وخليله. وكان اكثر اصحابه اتصالا به، وكان لذلك اكثرهم تتبعا لتعاليمه وهو بعد ذلك رجل رقيق الخلق، رضى النفس واليه ينسب عشرات الالوف بل ومئاتها من المسلمين المنتشرين فى انحاء الارض ، ثم الى جانب رقته ودقته الخليفة الاول وهو الذى اقر الاسلام حين حاول المرتدون من العرب ان يقضوا عليه . ولهذا فحين يقدم الدكتور هيكل كتابا عن الصديق ابو بكر فإنه بذلك يكون قد مهد الطريق لكتابة تاريخ هذه الامبراطورية كله او بعضه . ولهذا تناول سيرته من اولها . . من قبيلته وابويه وصباه وصفاته ، واخلاقه واشتغاله بالتجارة وصلته بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل الاسلام ثم اسلامه ، ووقوفه الى جانب النبي فى غزواته .وموقفه العظيم بعد موت النبي حين تبلبل العرب وارتدوا ثم تمهيده للفتح وللامبراطورية الاسلامية الكبرى حين تم فى عهده فتح العراق والشام وكيف كان ينظم حكومته تلك التى كانت تعمل ثم مرضه واستخلاف عمر بن الخطاب من بعده .

ولأبى بكر عظمة يكفى ان نذكر ما حدث فى عهده لنتأكد من هذه العظمة ان فيما رواه المؤرخون من وقائع عهد ابو بكر ما ينطوى على عظمة نفسية تثير الدهشة بل الاعجاب بل الاكبار والاجلال فهذا الرجل الوديع السمح تنطوى نفسه على قوة هائلة لا تعرف

التردد او الأحجام وعلى قدرة ممتازة فى بناء الرجال وفى ابراز ومواهبهم .

ويتسائل الدكتور فى كتابه اين كانت عبقرية ابو بكر اثناء حياة الرسول ويجيب قائلا :

عدت بالذاكرة إلى سيرة أبى بكر قبل خلافته واستحضرت مواقفه من رسول الله فبدت لى فى ثوب جديد من الجلال تحيط بها هالة من عظمة تواضعت الى جانب عظمة رسول الله لكنها برزت امامى بكل بهائها وجلالها حين قرنت صاحبها الى سائر أصحاب رسول الله ومن اتبعه من المسلمين فأين مواقفهم على جلالها وعظمتها ، من مواقفه أول الرسالة وحين كانت قريش تنال من الله رسول بالاساءة والأذى ، وحين كان حديث الاسراء وأول الهجرة وفي مكافحة دسائس اليهود بيثرب ان كل موقف من هذه المواقف لكفيل وحده بأن يؤرخ لرجل وأن يثبت اسمه فى كتاب الخلود وعظمة أبى بكر مع ذلك هى العظمة الصامتة التى تأبى أن تتحدث عن نفسها لأنها عظمة الروح وعظمة الايمان الحق بالله وبما أوحى الى رسله .

ثم يتسائل الدكتور هيكل بعد ذلك عن الجوانب الأخرى التى جعلت من ابى بكر عظيما وعبقرياً ومنها حسن رأيه وبعد نظره فهو حين يعسكر فى غزو الفرس وفى عزو الروم يفكر جيدا فى تكوين هاتين الامبراطوريتين اللتين قامتا على حكم الفرد وعلى نظام الطوائف وعلى التفاوت بين الناس وهذا فى واقع الأمر بعد نظر منه .

وحين يحدثنا الدكتور هيكل عن عهد ابى بكر وما يتميز به وعن

الصعاب التي صادفها في بداية عهده والتي أثارت مخاوف المسلمين. عن كل هذا يحدثنا **الدكتور هيكل** فيقول: «وأنا أقصد ما أقول حين أذكر أن عهد الصديق له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام فهو على اتصاله بالرسول وعهده يمتاز بطابع يشخصه في عهد الرسول كان عهد وحي من عند الله أكمل الله به للناس دينهم وأتم عليهم نعمته ورضى لهم الاسلام ديناً»

أما عهد **ابي بكر** فكان فترة الانتقال العصيبة الدقيقة التي تربط بين عهد **الرسول وعهد عمر** وتتميز مع ذلك عن كل منهما، بل تتميز عن كل عهد عرفه الناس في تاريخ الحكم واستقراره وفي تاريخ الأديان وانتشارها.

في هذه الفترة الدقيقة صادفت **ابا بكر** صعابا بلغت من الشدة أن أثارت مخاوف المسلمين جميعاً في أول عهده فلما تغلب بفضل ايمانه عليها وأمده الله بالتوفيق والنصر فيما تلاها تولى **عمر بن الخطاب** سياسة المسلمين فدبر أمرهم وأقام بينهم عدلا وطد قواعد ملكهم وجعل دول العالم تدين طائعه لسلطانه.

كذلك من دلائل عظمة أبي بكر قضاؤه على ثورة الردة تلك التي استطارت عقب وفاة الرسول في بلاد العرب جميعاً بسرعة مروعة كما تستطير النار في الهشيم وبلغت أنباؤها أهل المدينة من حول أبي بكر بعد أن بايعوه فتولتهم الدهشة واختلفوا فيما يصنعون وها هو عمر بن الخطاب وقومه يرون ألا يقاتلوا الذين منعوا الزكاة ماداموا يشهدون (أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله) لكن **ابا بكر** أصر على قتاله

من منعوا الزكاة ، كما أصر على قتال من ارتدوا فكانت حروب الردة التي استمرت عاما وبعض عام .

وعظمة **ابي بكر** تبدو أيضا في هذه الأسوة الروحية التي التمسها **ابو بكر** في رسول الله والتي جعلت للمسلمين الانتصار على المرتدين من سائر العرب قد دفعت إلى نفوس المسلمين جميعا حمية سمت بهم إلى الإيمان بأنهم لا غالب لهم من دون الله وحببت اليهم الاستشهاد في سبيل الحق وجعلتهم يرون هذا الاستشهاد نصرا دونه كل نصر .

**والدكتور هيكل** يوضح القوة الروحية للايمان عند أبي بكر حين يقارن عهده بعهد الرسول فيقول «كان المسلمون في عهد رسول الله مطمئنين إلى النصر لأن الله وعد به رسوله فكان يمده بالملائكة وكان يوحي إليه ما يحقق وعده جل ثناؤه . أما في عهد **ابي بكر** وقد انتهى الوحي باختيار الله اليه رسوله فقد أصبح الإيمان وحده وأصبح التأسي برسول الله وبخليفته في السمو بهذا الإيمان إلى ما فوق كل اعتبار في هذه الحياة الدنيا وأصبح الاستشهاد في سبيل هذا الإيمان سر القوة وسر النصر وسر الرقي بما تنطوي عليه نفوسنا من معان إنسانية رفيعة إلى غاية الكمال الإنساني » .

والدكتور هيكل حين يقدم لنا أبا بكر الخليفة والصديق يقرر أن هذا الخليفة ادرك بإلهامه أن الإسلام دين مساواة بين الناس جميعا فالدعوة به لم توجه إلى قوم بعينهم وإنما وجهت إلى الناس كافة وقد اصطفى رسول الله في حياته موالي رفعهم إلى أعز مكانة واسماها كما أقر جماعة من العجم على حكم العرب . فسلمان الفارسي كان من خاصته المقربين وزيد بن حارثة مولاه الذي اشترته خديجة ثم وهبته له فاعتقه وتبناه . إذن فالإسلام حين سوى بين هؤلاء جميعا دين مساواة .

وكذلك ادرك أبو بكر كما يقرر الدكتور هيكل بإلهامه أن الإسلام امبراطورى فى جوهرة فالدعوة اليه لم تنحصر فى العرب بل هى دعوة إلى الحق موجهة إلى الناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها . أما ذلك مداها وقد وجه النبي رسله الى الملوك والأمراء يدعوهم الى دين الله حق على كل من آمن بهذا الدين أن يدعو اليه وان ينشر كلمته هدى للناس ورحمه ولكل مسلم فى رسول الله اسوة حسنة . لقد اذاع رسول الله الدعوة فى الناس على اختلاف اجناسهم . وعلى هذا الأساس بنى أبو بكر نظريته فى أن الإسلام امبراطورى فى جوهره

**هذه المبادىء الجوهرية التى قامت دعوة النبى على اساسها والتى ادركها ابو بكر أدق الادراك بالهامه هى التى طوعت للصديق أن يزلل ما استفتح عهده من صعاب وأن يتغلب عليها وهى التى أسرعت كما يؤكد الدكتور هيكل « بالامبراطورية الاسلامية الى انحاء العالم لتظل امما كثيرة .**

# الفاروق عمر

يقدم **الدكتور هيكل عمر بن الخطاب** بقوله «ليس فى التاريخ الإسلامى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل تردد الالسن اسمه مثلما تردد اسم **عمر بن الخطاب** وهى تردده وتقرن به فى أعجاب واكبار ماعرف عن عمر من جليل الصفات وعظيم المواهب» .

والحق أن **عمر** كان له من السمات والصفات ما يجعله اهلا لهذا المركز الذى وضعه فيه **الدكتور هيكل** فإذا ذكر الناس الزهد فى والدنيا مع القدرة على النهل من انعمها ذكروا **زهد عمر** وإذا ذكروا العمل المطلق غير مشوب بشائبه ذكروا **عدل عمر**، واذا ذكروا النزاهة لا يفرق

صاحبها بين أقرب الناس اليه وابعدهم عنه ذكروا نزاهة **عمر**، واذا ذكروا العلم والفقه فى الدين ذكروا فقه عمر ودينه .

**والدكتور هيكل** يرجع كل هذا الى قيام الامبراطورية الإسلامية فى عهد عمر فقد خلف عمر أبا بكر على امارة المؤمنين حين فرغ **ابو بكر** من حروب الردة وحين كانت جنود المسلمين تواجه الفرس والروم على تخوم العراق والشام فلما قبض **عمر** كانت الامبراطورية الإسلامية قد اشتملت العراق والشام معا وتخطتهما فاشتملت فارس مصر وبذلك بلغت حدودها الصين من الشرق وافريقية من الغرب وبحر قزوين من الشمال والسودان من الجنوب وقيام هذه الامبراطورية كما يقرر الدكتور هيكل فى صفحات كتابه معجزة لاريب فيها .

فإذا تمت هذه المعجزة فى عهد عمر وبتوجيهه فهو لاريب رجل عظيم وقد بدت بوادر هذه العظمة فى عهد رسول الله وفى عهد **ابى بكر** ثم ضاعف نصر المسلمين من بعدهما قدرها كما زادها على مر العصور واضاف اليها فقد تبين الناس على تعاقب الأجيال أن هذه الامبراطورية لم تكن وليدة عبقرية حربية تبقى الامبراطورية مابقيت وتزول بزوالها بل كانت قائمة على أساس قوى من خلق متين وحضارة سليمة الأساس .

ويضرب **الدكتور هيكل** مثلا « قائلا فإذا صح أن يشيد الناس بعظمة يوليوس قيصر والاسكندر الأكبر وجنكيز خان ونابليون لأنهم أقاموا من الأمبراطوريات ما أقاموا فأحرى بهم أن يكونوا أكثر إشادة بعظمة عمر بن الخطاب وأكبر قدر لآثارها » .

تمت المعجزة بقيام الإمبراطورية الإسلامية فى عهد عمر فقد كان المسلمون إلى يوم استخلف يخشون الفرس والروم ولذلك ترددوا حين ندبهم عمر الذهاب إلى العراق يواجهون الفرس فيه وكان لهم من الحذر أن اسم فارس يزلزل القلوب والإسماع وكان جند المسلمين قد تركوا العراق بعد ذهاب خالد بن الوليد إلى الشام بأمر إبى بكر وإقام الناس على تثاقلهم أياما ثم لبى أبو عبيدة الثقفى دعوة عمر وذهب فى بضعه آلاف ليلقى جنود كسرى فنكب فى غزوة الجسر إذ مات وانهزم جيشه ولم تزعزع هزيمته من عزيمة عمر بل زادته إقداما ودفعته لينهض بنفسه على رأس المسلمين يريد مواجهة الفرس ليمحو عار تلك الهزيمة ولقد كان فاعلا لولا أن صرفه أولو الرأى عما إراد عند ذلك أرسل مسعد بن أبى وقاص مكانه وظفر سعد بالفرس فى غزوة القادسية ظفراً حاسماً فتح له أبواب عاصمة الفرس وفتح المسلمون أبواب فارس . وفى هذه الأثناء كان أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد يسيران إلى الشام يردان هرقل عاهل الروم على اعقابه ويدفعانه دفعاً ليفر إلى عاصمة ملكه .

تم ذلك ولما تنقض من خلافة عمر سنتان ومن يومئذ حالف النصر إعلام المسلمين حينما ساروا ففتحوا المدائن وفتحوا بيت المقدس ثم تخطوا العراق إلى فارس وتخطوا الشام إلى مصر كاستقر لهم الأمر فيها . وكذلك شاد عمر الإمبراطورية الإسلامية فى عشر سنوات لتستقر فى العالم وتوجه حضارته الإجيال والقرون .

إذ كان للدكتور هيكل الحق فى ما قاله بأن الألسن تردد اسم عمر

وأن تذكر من جليل صفاته وعظيم مواهبه مايثير فى النفس غاية الإعجاب والاكبار .

وقد تناول الدكتور هيكل « كتابه هذا كما تناول « فى حياة محمد » وفى « الصديق أبى بكر » نواحى الحياة العربية لذلك العهد رأى من تناولها ما يكمل به ما عرض له من بحث ولكن لم يتناولها بدراسة مستفيضة كما يعترف قائلا « لأنها لم تكن غرضى الذى قصدت إليه بل تناولتها بالقدر الذى يتم به هذا الغرض .

وهذا الكتاب كما يقول عنه صاحبه حلقة ثالثة بعد « حياة محمد » والصديق أبو بكر لكنها تختلف عن الحلقتين الأوليين كما تختلف كل واحدة من هاتين الحلقتين عن الأخرى إختلافا ظاهراً هذا مع توالى الحلقات الثلاث كل واحدة عن سابقتها كما تخرج الجذور من البذور ثم ينبثق الجذع باسقا من البذور ثم تتفرع الاغصان من الجذع . وقد تذبل الأغصان ويبقى الجذع مع ذلك قوى الحيوية . فإذا كانت الإمبراطورية الإسلامية — على حد قول الدكتور هيكل فى كتابه هذا — قد انقسمت فلا يزال الإسلام الذى أنشأها قديراً على أن ينشىء وحدة إنسانية عظيمة تلائم روح العصر ونظامه .

والكتاب صورة مجملة من حياة عمر ومن تصرفاته مفصلة تفصيلا صورة تذلك على ما كان لشخص عمر من فضل فى بناء الامبراطورية العظيمة فى هذا الزمن الوجيز الذى قامت فيه وتكشف لك عن السبب الذى ابقى على التاريخ اسم هذا الرجل العظيم يتحدث عنه على من الاجيال فى مشارق الأرض ومغاربها حديث أكبار وأعجاب .

غير أن هناك ملاحظة يجب أن نذكرها وهى أن مافصل فى هذا الكتاب لم يتخط التاريخ السياسى لهذه الفترة القصيرة من حياة المسلمين الأولين أما ما جاء فى فصوله عن حياة العرب الاجتماعية وعن الفرس والروم فانما جاء مجملا إرادبه المؤلف إيضاح هذا التاريخ السياسى ولم يقصد به إلى تفصيل ماحدث من تطور الحياة الاجتماعية فى بلاد العرب بقيام الإسلام ولا إلى تفصيل الحياة السياسية نفسها فى البلاد التى فتحها المسلمون . كذلك لم يتناول الفصل الذى أفردلاجتهاد عمر تفصيل هذا الاجتهاد . وقد تناول بعض العلماءوالباحثين فى عصرنا طائفة من هذه النواحى ببحوث ممتعة إيما امتاع .

## عثمان بن عفان

بدأ الدكتور هيكل هذه الدراسة عن عهد عثمان بن عفان سنة ١٩٤٥ قاصداً بذلك المضى فى دراساته الاسلامية التى بدأها بكتابه «حياة محمد» ولقد كانت ظروف حياته السياسية منذ خاض غمارها وزيرا يتحكم إلى حد بعيد فى انتاجه الفكرى والأدبى . فقد كان من خطته ألا يصدر كتابا فى أثناء توليه الوزارة هذا الى جانب أن وقته فى أثنائها لم يكن يتيح له أن يستكمل ما يكون قد بدأه من دراسة فيضطره ذلك لارجائها الى الوقت الذى يتفرغ لها فيه . وكان هذا شأنه ابان توليه رئاسة البرلمان . وقد أدى ذلك الى ارجاء دراسة ما تبقى من عهد عثمان عاماً بعد عام حتى أصبح الرجوع اليها بعد ذلك أمرا غير ميسور .

على أن ثمة عاملا آخر وقف الدكتور هيكل عنده طويلا قبل أن

بعض فيما كان قد بدأه من هذه الدراسة وأدى به كذلك الى ارجاء النظر فيها — كما يقول ابنه الأستاذ أحمد هيكل — ذلك أن الجدل بين الفرق الإسلامية فى أمر خلافة عثمان وأحقية على بالخلافة لما ينتهى رغم انقضاء ثلاثة عشر قرنا أو تزيد منذ ولى عثمان أمر المسلمين ورغم ما أصاب نظام الخلافة نفسه من تحول لم يبق لها من معالمها غير أسمها ثم انتهى بها الى الأندثار فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

فقد بلغ الأمر ببعض هذه الفرق أن حاولت التشكيك فى شرعية خلافة أبى بكر وعمر ، ورأوا أن الخلافة كانت حقاً لعلى أوحى له به رسول الله من بعده .

وهذا التطرف الذى تذهب اليه تلك الإراء معيب بغير شك لأنه يتعارض تماماً مع مايدعو أليه الإسلام من أن المؤمنين به سواسية وأنهم لذلك يتساوون فى الحقوق والواجبات العامة ، وولاية الأمر من بينها لمن كان أهلالها .

وقد وقف الدكتور هيكل عند هذا الجدل الذى بلغ حد الخصومة العنيفة وبحثه فى استفاضة وأغلب الظن أنه لم يقطع فيه برأى أو يطمئن الى نتيجة فلو أنه انتهى الى شيء بعد ذلك لكان وافعاله الى متابعة هذا البحث ونشره وأن أدى مايرجحة فيها من وجهات نظر الى جدل لايعرف مداه .

على أنه لاريب فى أن ماذهب اليه البعض من أن الرسول أوصى لعلى بالخلافة من بعده . ومن أن ذرية على أحق . لذلك بها لم يكن

لتزعزع ثقة الدكتور هيكل فى حق المسلمين فى اختيار حاكمهم اختياراً حراً مبرأ من كل قيد ، أو من اعتقاده بأن الخلاف فى ذاته كان ضرره على المسلمين اضعاف نفعه ان كان له نفع على الاطلاق .

والمتتبع لخطة الدكتور هيكل فى تأريخه للرسول وخليفتيه الأولين وميله فى ذلك الى الطريقة التحليلية يرى انه لم يحد فى هذا الكتاب عنها . بل انه ازداد تمسكا بها . وركونا اليها .

فهو قد تناول فى الفصل الأول منه ملابسات اختيار الخليفة . . الثالث للقيام بأعباء الحكم والناس لما يفيقوا بعد من الذهول الذى أصابهم لمصرع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو لم يقتصر فى هذا الفصل على إثبات ما حدث من اجتماع الستة الذين حصر عمر فيهم الخلافة من بعده ، وما أثير فيه من مناقشات بل إنه أشار إلى منشأ فكرة الشورى عند عمر وكيف أنه تردد بين أن يترك أمر تعيين الخليفة للصحابة يتشاورون فيه بعده اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين أن يعين خليفته اقتداء بأبى بكر حين جمع رأى الصحابة عليه . ولقد كان التطور الذى شهدته الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ومنذ عهد أبى بكر يقتضى ألا يترك الامر رسلا ، فانتهى عمر الى نظام الشورى نواة لنظام تشريعى مرن لاختيار الخليفة يتطور بتطور ظروف الدولة وأوضاعها السياسية . وقد أتاحت المرونة التى تميز بها هذا النظام أن يتسع نطاق المشاورات وألا يقتصر على الستة الذين عينهم عمر وأمكن بذلك التوفيق بين الاتجاهات المتعارضة توفيقاً كان لابد منه ليضمن الشورى مبايعة الناس من يختارونه من بينهم . وقد

أعطى وصف هذه المشاورات وموقف الناس منها ولهفتهم على نتائجها لهذا الفصل حيوية نكاد نشهد معها أحداث ذلك اليوم العظيم .

وإذ تجتمع البيعة لعثمان ، يبحث الدكتور هيكل فى ملامح الخليفة الجديد وفى طباعه وفيما يمكن أن تؤثر به هذه الطباع فى سياسة الدولة فى عهده . ذلك أن لشخصية الحاكم فى جميع العصور أثرا بالغا فى سياسة الدولة وتصريف أمورها . وقد شهد المسلمون من عدل عمر وحسن سياسته ما يعكس كثيراً من طباعه . أفسيكون لعثمان فى سياسة الدولة من الأثر ما كان لعمر ؟ ذلك ما سيتكشف خلال حكمه وخلال ما يلى من الفصول هذا الكتاب .

وقد تابع عثمان أول عهده سياسة الرسول والشيخين ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، لعهد قطعه على نفسه حين بويع أن يجرى على هذه السيرة . ويتمثل ذلك بوضوح فى سياسة الفتوحات فى عهده . فقد كانت تلك السياسة امتداداً لسياسة عمر وإن كان كل ما حدث من انتفاض بعض الولايات وثورة بعضها قد حتم على عثمان أن يسير الجيوش لقمعها والقضاء عليها . كذلك كان حتما عليه أن يبادر إلى تجهيز أسطول المسلمين بالشام ومصر ليرد المغيرين على أعقابهم ، رغم أن عمر كان قد نهى عنه إذ لم يكن للعرب عهد بالبحر من قبل . ولعل ما أتاه عثمان من ذلك ومن مثله لم يكن مخالفة للعهد الذى قطعه على نفسه . وإنما أملته ظروف لو أن عمر شهدها لرأى فيها مثل رأى عثمان ، وقد فصل الدكتور هيكل فى الفصل الثالث من الكتاب سياسة عثمان هذه بما يشهد بذلك ويؤيده .

على أن ما خالف به عثمان عمر لم يكن ليثير عليه أحداً لو أنه

اقتصر على ما كان ضرورياً من ذلك — إلا أنه — وولاته — عمدوا ، إزاء اتساع رقعة الإمبراطورية وازدياد فيئها وخراجها إلى نوع من الحياة لم يألفه الناس ، كما أنه سلك فى تولية هؤلاء الولاة وعزلهم طريقاً لم تكن لترضى الكثير عنها . والراجح فى هذا الشأن أن **عثمان بن عفان** أبقى عمال عمر على ولا ياتهم العام الأول من خلافته انفاذا لوصية سلفه ثم إنه استبدل بهم غيرهم . أكثرهم من ذوى قرباه ليضمن ولاءهم . ولو لم يكن ذلك من سيرة **عمر** فى شىء . بل إن هذه القرابة كانت تكفى **عمر** ألا يولى صاحبها من لا يتهم فى نزاهته .

ولما توفى **الدكتور هيكل** قام الدكتور جمال الدين سرور أستاذ التاريخ الاسلامى بكتابة الفصل الأخير عن نهاية حياة **عثمان** ، ومنه يبدو جلياً أن الفرقة بدأت تدب فى صفوف المسلمين فى أواخر عهد عثمان وأن سائر الولايات بدأت تعبر عن استيائها بشتى الوسائل وأن تضامن من بقى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ظل مع ذلك قائماً قوياً ، وتبلور هذا التضامن فى رفضهم أن يبايع الثائرون أحدهم للخلافة عملا بقول الرسول : « من دعا لنفسه أو لأحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه » .

## الإمبراطورية الإسلامية

أراد **الدكتور هيكل** أن يؤرخ تأريخاً صحيحاً للإمبراطورية الإسلامية من منشئها إلى بداية قيام الدولة الأموية ويظهر هذا التاريخ بصورته المشرقة باعتباره ثمرة لغرس **محمد** ودينه ليكون مادة طيبة

للوحى والاستلهام لحضارة جديدة أساسها أن معرفة الماضى وسيلة لتطوير الحاضر وتحسين المستقبل على النحو المشرق الذى يرجى للأقطار العربية .

فسجل أول ما سجل لهـــذه الإمبراطورية فى كتابه الأول عن الإسلام « **حيــاة محمد** » ويبدو أنه أراد أن يخصص لها كتاباً . وهنا قـدم كـتاب « **الامبراطورية الاسلامية والأماكن المقدسـة** » والـكتاب من عنوانه تجتمع بين دفتيه مباحث فى موضوعين أساسيين .

**اولهما : نظام الحـكم فى الاسلام .**

**وثانيهما : الاماكن المقدسة فى الشرق .**

وقد بين **الدكتور هيكل** فى الجزء الخاص بالمبادىء العامة لنظام الحـكم أن نظام الحـكم الذى يتفق مع مقررات الإسـلام هو النظام الذى تـكفل فى ظله الحريات ويتخذ لنفسه أساساً من رضى المحـكوم عن الحاكم . وقد تناول الجزء الثانى فـكرتى الاشتراكية والديمقراطية فى الإسلام وقد خلص **الدكتور هيكل** إلى أن الاشتراكية الإسلامية هى التى تقوم بالنفس على أنها من فرائض الإيمان .

وفى الجزء الثالث تناول الدكتور هيكل مالبحث المبادىء الرئيسية للحرية الشخصية التى قامت على أساسها مواثيق التنظيم الدولى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . مبنياً ما بينها وبين مقررات الإسلام من صلة تقرب أو تبعد بينهما ثم ينتقل بنا الـكتاب إلى جزئه الأخير الذى يكاد يستقل موضوعه عن الأجزاء السابقة فهو يعرض للأماكن الإسلامية فى الشرق الأوسط عرضاً تاريخياً أولا ثم يصف هذه الأماكن وأثرها

الروحى فى حياة العالم متنقلا بك من مكة إلى المدينة إلى بيت لحم وبيت المقدس مستقر عيسى عليه السلام وموئل موسى عليه السلام .

الكتاب يطوف بك فى هذه الامبراطورية الإسلامية موضحا لك معالمها ومبادئها معاً .

* * *

والآن لعلنا نكون على يقين من أن منهج الدكتور هيكل وكتبه أضافت إلى الفكر العربى بوجه عام أساليب جديدة فى البحث وللفكر الإسلامى بوجه خاص حججاً قوية يستطيع أن يقف بها ضد خصومه وهذا ما كان يهدف إليه بعد عودته من أوربا حين فكر فى كتابة التاريخ بأسلوب قصصى على نحو ما فعل « سير وتر سكوت » بتاريخ انجلترا .

# الفصل الخامس

## إسلاميات العقاد

ثلاثون كتاباً أو تزيد .. هي صورة حية لفكر العقاد الاسلامي .. فيها حياة وقوة ، فيها عظمة وشموخ فيها خصب ونماء ، فيها ثورة وتمرد .. الأمر الذي يجعل العقل يهتز .. هذه الهزة القادرة وحدها .. على انتشاله من سطحية المعرفة الى عمق العلم ومن ظلمة الشك الى نور اليقين .

# اسلاميات العقاد

فى محاضرة بجامعة الأزهر .. سأل الطلبة أستاذهم أحمد حسن الباقورى، وكان وقتها مديرا للجامعة .. عن رأيه فى كتابات الأستاذ عباس محمود العقاد الاسلامية وموقفه منها كأزهرى . فكان نص اجابة الشيخ الباقورى الذى نشر فيما بعد بإحدى المجلات الاسلامية الكبرى ما يلى : « الأستاذ العقاد مجاهد صادق بعيد النظر ، غيور على الإسلام والمسلمين ، غيرة عاملة وليست ثرثارة جامدة كأكثر أنواع الغيرة التى نشهدها فى دنيانا الآن . .

والأستاذ العقاد أزهرى بتخرجه على ثقافة الأزهر ، وان لم يكن أزهريا بتخرجه فى الأزهر . فقد كان رحمه الله بهذه الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة الى جانب ثقافته الغربية المتينة . خير لسان للعروبة والإسلام بما كتب من كتب ومقالات ، وأذاع من أحاديث تدفع عن العربية أوهام المبطلين وعن الإسلام شبهة المغرضين .

وقد صدر عن مدرسة الأستاذ العقاد فى كتبه ومجالسه فضلاء كثيرون سوف تبرزهم الأيام لتنتفع بهم أمتنا أحسن الانتفاع ان شاء الله .. »

هذه شهادة واحد من طليعة المتخصصين فيما كتبه الأستاذ العقاد . وما أظن أن هناك رأى آخر يمكن أن يقال فيما كتبه الأستاذ العقاد خيرا من هذا الرأى . ولا يبقى اذن غير مناقشة ما كتبه الأستاذ العقاد فى الإسلام .

ولما كان الأستاذ العقاد يختلف عن غيره فيمن كتبوا فى الإسلام حيث استخدم فى تناول المادة الإسلامية ثلاثة مناهج مختلفة .. وجب أن يدرس كل منهج على حدة .

فالأستاذ العقاد حين يكتب العبقريات غيره حين يترجم للشخصيات غيره حين ينشىء الدراسات والأبحاث . ولعل ما يربط بين عبقرياته وشخصياته ودراساته وأبحاثه هى صفته كأديب مؤرخ .. وأدبه فى التاريخ هو كأدبه بوجه عام .. هذا الأدب الذى يتميز عن غيره من الآداب .. بأنه أدب الفكرة الواعية .

ولهذا فالبحث فيما كتبه الأستاذ العقاد عن الإسلام يقتضى التمييز بين تناوله للعبقريات والشخصيات والدراسات ، وهذا يقتضى أيضاً تناول كل واحدة على حدة . لمعرفة منهج العقاد فى كتابة الإسلاميات .

# أولا : العبقريات

فى البحث عن منهج للعقاد فى تناوله العبقريات .. نجده يهتم أولا بل ويجهد نفسه ويرهقها لايجاد مفتاح للعبقرى الذى يتعرض له . وبهذا المفتاح يفتح الأستاذ العقاد مغاليق نفس هذا العبقرى ليعرف مدى عظمته وحدودها ، وما يصدر عنها من أفعال وتصرفات وقيمتها بالنسبة للانسانية عامة .

وهذا بالطبع يتطلب من الأستاذ العقاد الفهم الواعى لمفتاح هذا العبقرى .. أمراً يجعله يقوم بالتحليل النفسى الدقيق لهذه الشخصية

التى يراها عبقرية ، ثم بالاحاطة الشاملة لملابسات العصر الذى عاشت فيه .

وقد يحدث أن يتشابه مفتاح احدى شخصياته مع مفتاح شخصية اخرى . وهنا يكد الأستاذ العقاد ذهنه فى البحث عن اختلاف فى السلوك الانسانى - بوجه عام - لهاتين العبقريتين المتشابهتين فى المدخل .

فعند البحث مثلا عن مفتاح لعبقرية عمر بن الخطاب وجده فى طبيعته كجندى . ونفس هذا المفتاح « طبيعة الجندية » وجده لعبقرية خالد بن الوليد . وهنا يوضح الأستاذ العقاد الفرق بين العبقريتين حين يجعل عمر تغلب عليه من طبيعة الجندية ناحية « الروحية » . بينما تغلب على خالد من هذه الطبيعة ناحية « الحيوية » أو بعبارة أخرى كانت جندية ابن الخطاب « موزعة حكيمة » بينما جنديه ابن الوليد « مدفوعة هاجمة » .

لكن من هو العبقرى عند العقاد ؟

العبقرى عند العقاد ؟ انسان يقيس الأشياء بمقياسه الخاص الذى يعلو على مقاييس العامة، ويأخذ نفسه به ، وأنه انسان لم يخلق لخدمة نفسه او اسرته او عشيرته وكفى، بل هو من خلق لخير انسانى عام ، واوتى من القوة ما يخدم به غيره ، ولو اتخذ هذا الخير الانسانى العام صورة عالية او قومية او وطنية او قبلية .

والعبقرية عنده تنمو على البذل والعطاء ، ولا تتورم بالنهب او السلب او الجور على حقوق غيرها حتى تنفجر . . باختصار عظمة العبقرى عند الاستاذ العقاد هى التى تقول « نحن » ولا تقول « انا » مبثورة الجذور والفروع عما حولها . . وحتى لو سمعت منها « انا » فلا تفهم من معناها الا « نحن » .

فإذا كانت هذه هى الصورة العامة لمنهج الأستاذ العقاد فى كتابة الإسلاميات فإن تفاصيلها منهجه فى الكتابة تقول .

إن الأستاذ العقاد حين يكتب عبقرياته لايكتفى بالعرض الفوضى أو المنظم تنظيما آليا أو شبه آلى ، بل ينسق الملامح البارزة فى كل صورة وينفخ فيها من روحه وروح هذا العبقرى الذى يكتب عنه فيحييها فى نفوس قرائه حتى يعاطفوا عبقريته ، فيجدوا فى نفوسهم آثار فضل كفضلها ، ويلموا بجمل من لغتها .ومن ثم يشعر القارىء بالغبطة لأنه يرى أنه قد ارتفع فوق نفسه ، وحلق فى أفق أعلى مما أعتاد أن يحلق فيه من آفاق . بل يمتلىء من العبقرية بأكثر مما أداه العقاد إليه .ويلقن عن آياتها أكثر مما لقنه . ويضرب بجناحه فى أفق أعلى مما أراد له العقاد أن يحلق . ذلك أن العقاد فى عبقرياته لايقصر خطابه على عقل قارئه ، بل يحرك كل حياته ، ويستجيش كل ما تشتمل عليه من عطف وشعور وخيال وبداهة وتأمل وتفكير .

. والأستاذ العقاد يبرز عبقرياته كما يبرز كتاب « المآسى » أبطالهم . فيستميلون إليهم . ومن هذا التشيع لبطل المأساة تتطهر النفوس من أدرانها . وهذا الجانب هو الذى يحركه الأستاذ العقاد فى نفوس قراء عبقرياته فيشيعوا معه إلى جانب « العبقرية التى يكتب عنها » بالقدر الذى يمضى بهم إليه وكثيراً ما يذهبون فى التشيع للعظيم إلى أبعد مما كان يريد العقاد . والسبب فى هذا أسلوب العقاد وتعبيره عن أفكاره فما من عبقرية من عبقرياته إلا وهى قصيدة شعرية ينقصها الوزن والقافية ، ولكن لاينقصها صدق الشعور ولا جمال التعبير بل

لا ينقصها التنغيم النفسى الذى يكاد أن يدفع الإنسان إلى التغنى بها والرقص على إنتظام انغامها فى النفس .

. والعقاد لا يكتب حياة عبقرى أو يصور صورته إلا وهو داخل معه فى اهابه ، متلبس به ، متشـكل بشكله ، وهو يحيا معه حياته بكل ما تشتمل عليه من قوة وضعف ، فيقف على أسراره من داخل نفسه هو ، لا من مجرد ما ينسب اليه من أخبار وأعمال وأقوال سواء كانت صحيحة أو منحولة . لذلك ترى شخصية العقاد أمامك فى كل عبقرية مع شخصية صاحبها يتحركان معاً .

والأستاذ العقاد لا يتحفظ فى الثناء على « العبقرى » أو أعماله خوفا من الاتهام بالمبالغة طالما وجد ما يستحق منه ثناءه لـكن على الرغم من ثناء العقاد . فإننا نجد روح الإعجاب والعطف لا تعطل ملـكة النقد عنده أو تضعفها بل تراها ناشطة متوهجة بملء قواها ، فملـكة النقد عنده من أقوى ملـكاته وأبرزها ، وروح النقد ظاهرة جياشة فى كل ما يصدر . من كتابات .

وبهذا المنهج جملة وتفصيلا كتب العقاد عبقرياته وهى « عبقرية محمد » و « عبقرية عمر » و « عبقرية الصديق » و « عبقرية الامام » و « عبقرية خالد » .

# عبقرية محمد

وها هو العقاد يشرح فى كتابة « عبقرية محمد » فيقدمها قائلا » :
سيرى القارىء أن «عبقرية محمد »عنوان يؤدى معناهفى حدود المقصود ولايتعداها. فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف إلى السيرالعربية والأفرنجية التى حفلت بها « المكتبة المحمدية » حتى الآن . . لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها فى هذه الصفحات على إعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار فى هذا الموضوع ثم لايقال أنه استنفدكل الاستنفاد .

وليس الكتاب شرحا للاسلام أو لبعض أحكامه أو دفاعا عنه أو محاولة لخصومة . . فهذه أغراض مستوفاة فى مواطن شتى ، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها .

إنما الكتاب تقدير « لعبقرية محمد » بالمقدار الذى يدين به كل إنسان ، ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذى يبث له الحب فى قلب كل إنسان ، وليس فى قلب كل مسلم وكفى .

محمد هنا عظيم . . لأنه قدوة المقتدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس . . فالعقاد يبدأ بداية علمية فيقرر أنه لن يعتمد على المعجزات والخوارق التى ينسبها بعض المؤرخين إلى النبى ، لأن عظمة النبى تظهر فى أعماله وسياسته للأمور أكثر ما تظهر فى تلك المعجزات التى لايتفق عليها الجميع، والتى لاتنسجم مع رسالة محمد فى تحرير العقل من ربقة التقليد والوثنية .

وهنا يلتقى **العقاد** مع **الدكتور هيكل** فى عدم تعويلهما على الخوارق ولكنهما إذ يتفقان على أن كل ما جاء به محمد يتفق مع العقل ، فهما يختلفان فى شيء آخر ، هو طريقة الرسول فى مخاطبة العقل .

**الدكتور هيكل** يرى أن هذا الخطاب كان خطاباً مباشراً يتجه الى عقول الناس التى تملك من الفطرة والتجربة ما يمكنها من التفريق بين الحق والباطل .

والأستاذ العقاد يرى أن هذا الخطاب كان غير مباشر لأنه كان يتجسد فى أعمال النبى وسلوكه ، أى فى شخصه العظيم .

وإذا كان بعض المفكرين المسلمين ومنهم الامام **محمد عبده والدكتور هيكل** يرون أن ايمان الانسان بالله سابق على وجود الأنبياء لأنه كيف يصدق رسالة النبى اذا لم يؤمن أساساً بوجود الله الذى يبعث النبى ، وكان **العقاد** يرى أن محبة الناس لشخص الرسول كانت سابقة فى قلوبهم وأرواحهم لحب العقيدة والإيمان ، أو أنهم أحبوا الرجل الذى تمثلت فيه العقيدة على أكمل مثال ،فانبهروا بالرجل المثال وآمنوا بالعقيدة التى بدت أمامهم ممكنة بل متحققة .

والإنسان العبقرى أو الإنسان البطل هو محور إهتمام العقاد كله . العقاد الشاعر والمفكر والناقد والقصاص والسياسى، وحتى العقاد الإنسان فالبطولة الإنسانية عند العقاد تقف فى مقابل الضرورات الطبيعية والقوانين الحتمية المألوفة . الإنسان فى مقابل الطبيعة. الفكر والإرادة

فى مقابل الغريزة والضرورة . ومن هذه الفكرة التى ربما تأثر فيها بالفلسفة المثالية الألمانية تفرع كل أفكار العقاد .

فالعقل لخلق المادة وليس العكس « لأن المادة لاتوجد ماهو أفضل منها وفاقد الشيء لا يعطيه » .

والله موجود ، لأن « تفسير الخليقة بمشيئة الخالق العالم المريد أوضح من تفسير يقول به الماديون ، وما من مذهب أطلعت عليه من مذاهب الماديين إلا وهو يوقع العقل فى تناقض لاينتهى إلى توفيق ، أو يلجئه إلى زعم لايقوم عليه دليل ، وقد يهون معه تصديق أسخف الخرافات والأساطير فضلا عن تصديق العقائد الدينية وتصديق الرسل والدعاة . فالقول بالتطور فى عالم لاأول له ، خرافة تعرض عنها العقول لأن إبتداء التطور يحتاج إلى شيء جديد فى العالم ، وحدوث التطور بغير إبتداء تناقض لا يسوغ فى اللسان فضلا عن الفكر أو الخيال . والقول بالارتقاء الدائم عن طريق المصادفة زعم يهون معه التصديق بالخرافات وخوارق العادات فى تركيب الأجسام أو الاحياء » .

العقاد يرى النبى عظيماً وعبقريته هى التى فتح بها قلوب الناس كما فتح البلاد والأمصار هى سليقة نفسية وطبيعة فطرية لابد للبيئة أو للمجتمع أو للعصر فى صنعها لذلك لم ينس أن يمهد لها بفصلها عن أوضاع العالم الذى ظهر فيه محمد وأوضاع القبيلة والاسرة التى نشأ فيها .

والعقاد يرفض رفضا قاطعا كل ما يقال من تأثر محمد بما كان يضطرب .

به العصر من عقائد وأفكار ، أو أنه كان التعبير الفذ عن جملة التيارات الجديدة التي أدركها ولباها : يقول العقاد لا . إنه لم يكن ثمرة عصره. بل كان رد فعل العصر . لقد ظهر بالرغم من هذا العصر الذى لم يكن إلا ما يناقض محمدا ويناقض رسالته . كان العصر عصر شرك والإسلام دين توحيد ، وكان عصر صراع قبلي عشائري والإسلام حركة جمعت في أمة ، وكان عصر صراع قومي والإسلام دين إنساني ، وكان عصر قلق واضطراب وقد جاء الإسلام ليحل محل ذلك الأمن والسلام وكان عصر خرافة ودجل والإسلام يخاطب العقل ويستند اليه .

والأستاذ العقاد يقارب بين قيادة النبي للحروب وبين قيادة اساطين الحرب، في العصر الحديث ويثبت سبق النبي إلى كثير من طرق الحرب الحديثة مثل سبقه لنابليون في اهماله لحصار المدن واعتماده على مهاجمة القوة الضاربة للاعداء وتحطيمها بهجمة سريعة .

ولقد كان نابليون يقول: إن نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة إلى واحد ، فسبقه النبي إلى الاعتماد على القوة المعنوية حين جعلها كنسبة خمسة إلى واحد كما حدث في غزوة بدر .

كما أن النبي القائد قد سبق هتلر في وسيلة من وسائل الحرب الحديثة وهي إسقاط بعض الفدائيين وراء صفوف العدو يرسلون اخباره ويوقعون الرعب في صفوفه ، وهو ما فعله النبي حين ارسل عبدالله بن جحش ليأتي اليه بأخبار قريش .

وإذا كان النبي قد سبق نابليون وهتلر في بعض الخطط الحربية ، فقد سبق بعض ساسة العصر الحديث وزعمائه في خططهم السياسية .. سبقهم

غاندى فى فكرة «المقاومة السلبية» وذلك فى عهد الحديبية الذى تعاهد فيه على ترك أعمـــال العنف بين المسلمين وبين قريش إلى حين . كما يسبق الدساتير الحديثة التى تنص على أن الأمة مصدر السلطات ، حين يقول «كما تكونوا يولى عليكم» ويسبق احرار الفكر المعاصرين فى قوله : ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها مالم تتكلم به أو تعمل به » .. ويسبق المصلحين الاجتماعيين فى تقريره لحقوق المرأة . والعقاد يقارن بين مايقرره الإسلام للمرأة من حقوق بما فى ذلك حقها فى أن تعلم الناس الدين وبين حقوق المرأة فى المجتمعات الحديثة خلال القرن الماضى فيرى أن المرأة المسلمة كانت إلى القرن الماضى تتمتع بما لا تتمتع به المرأة الأوروبية ، فمنذ بضعة وثمانية عاما فقط كانت المرأة الأوربية محرومة من حقها الـكامل فى ملك العقار وحرية التقاضى وهو ماقرره الإسلام للمرأة منذ أربعة عشر قرنا .

وبينما كانت المرأة الأوربية فى عصر الفروسية وهو العصر الذى اشتهر باحترامه للمرأة — تزف إلى الرجل لجأة لتسهيل المحالفات الحربية والصفقات ، كان النبى يقول للمسلمين قبل ذلك بعدة قرون : « إذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها أنه يخضب» أى فليصارحها بأنه يصبغ شعره ! .

والعقاد يطيل فى شرح موقف الإسلام من المرأة ، وهو يفند الاتهامات التى وجهها بعض المستشرقين إلى النبى حين ردوا زواجه المتعدد إلى غرامه بالنساء فيقول من جملة مايقول : إن زواج محمد بتسع نساء

ليس دليلا على الأفراط الجنسى كما أن عدم زواج المسيح عليه السلام ليس دليلا على القصور الجنسى .

**عبقرية الصديق :**

فى تقديمه لكتاب عبقرية الصديق ، يقول العقاد ! «إننى لا أكتب ترجمة للصديق رضى الله عنه ، ولا أكتب تاريخا لخلافته وحوادث عصره ولا أعنى بالوقائع من حيث هى أخبار ، فهذه موضوعات لم أقصدها ولم أذكر فى عناوين الكتب ما يعد القارىء بها ويوجه استطلاعه إليها...»

**اذن ماذا كان يقصد العقاد بعد ذلك من تاريخه للصديق أبو بكر؟**

انه يقصد أن يرسم صورة نفسية تعرفنا به وتجلو لنا خلائقه وبواعث أعماله ، كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين ، فلا تعنيه الوقائع والأخبار الا بمقدار ماتؤدى فى رسم هذه الصورة النفسية .

وقد يخطف انتباه العقاد حادثا صغيرا يستحق منه التقديم على أكبر الحوادث اذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته ، ولمحة مصورة أظهر من لمحته ، بل لعل كلمة من الكلمات الموجزة التى تجىء عرضا فى بعض المناسبات تتقدم لهذا السبب على الحوادث كبيرها وصغيرها فى مقياس التاريخ .

وحين يتصدى العقاد للكتابة عن عبقرية الصديق يرجو أن تكون الصورة التى يقدمها عن هذا الخليفة صورة صادقة كل الصدق فى جملتها وتفصيلها .

وهاهو يبدأ كتابه بالبحث فى اسمه ووصفه وصفاته ، ولماذا كان هذا الصديق الأول ولماذا اختاروه الخليفة الأول ويتطرق العقاد بين كل

ذلك الى البحث عن مفتاح لشخصية هذا الرجل العظيم ليسهل بعد ذلك دراسته

ومفتاح الشخصية عند العقاد هو أداة صغيرة يفتح لنا ابوابها وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها وهو يشبه الى حد كبير مفتاح البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التى قد تحملها فى اصغر جيب ، فاذا عالجته بها فلا حصن ولا اغلاق .

وبعد البحث عن مفتاح الشخصية الصديق يجده العقاد مفتاح الأعجاب بالبطولة .. وهذا الأعجاب بالبطولة هو الدسم الذى يقتسم به كل عمل من اعمال ابى بكر وكل نية من نياته ، وهو السر الذى تراه كامنا فى كل راى يرتئيه وكل قرار حاسم يستقر عليه .

هذا هو مفتاح شخصيته الذى به استطاع ان يفتح مغاليق نفسه ودخائلها .

بعد ذلك سهل على العقاد أن يقدم لنا ابا بكر فى إسلامه، وعلاقته بالرسول والصحابة ، ثم ابو بكر فى بيته وثقافته فلا بد أن يكون صفى رسول الله وخليله مثقفاً ولابد أن يكون له ما يبرز هذه الصحبة . بعد ذلك يقدم لنا العقاد أثر ابى بكر فى بناء الدولة الإسلامية ، ثم أثره فى تشكيل حكومه الصدر الأول فى الإسلام . هذا ولا ينسى وهو فى معرض الحديث عن أثر ابى بكر فى كل هذه الجوانب أن يذكر أثره فى استمرارية الإسلام بعد وفاة النبى عليه السلام .

وعن موته يذكر العقاد أنه قيل مات بالسم لكن ليس لهذا القول مرجع ، وقيل أنه مات بالحمى لأنه استحم فى يوم بارد فى شهر قائظ ، ولكن العقاد يميل أكثر إلى الظن بأنه مات بحمى الملاريا التى أصيب بها بعد الهجرة إلى المدينة ، وعاودته وهو شيخ ضعيف .

**عبقرية عمر بن الخطاب :**

**حين يتناول العقاد بالدراسة شخصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لايدرس فيه الخليفة الذى هزم القياصرة والأكاسرة ، وانما يدرس عظمته التى راعى فيها انها تجمع القوة والعدل والرحمة والحزم والتضحية والحصافة وسداد الراى والغيرة على الحق والاستقامه .**

وهذا الكتاب يرتبط بظروف معينة مر بها العقاد وذلك حين امتلأت الدنيا بأن الألمان سيدخلون مصر بعد هزيمة الانجليز فى العلمين. ولما كان العقاد قد كتب عن زعيم النازية هتلر كتاباً هو « هتلر فى الميزان » فيه لم يتملق النازية أو زعيمها وإنما قال كلمة الحق . لذلك كان من أعدى أعداء النازيين .. وهنا إقترح الأصدقاء على العقاد أن يترك البلاد . . فسافر إلى السودان . . وكان وقتها مستمرا فى دراسة مادة هذا الكتاب . وقد أشار من بعيد إلى هذه الوقعة فى مقدمته حيث قال : « فما شرعت فى تحضيره — الكتاب — وبدأت فى الصفحات الأولى منه حتى رأيتنى على سفر بغير أهبة إلى السودان . فوصلت إليه وليس معى من مراجع الكتاب إلا القليل . . . » .

ويتحدث العقاد عن عبقرية عمر . . التى بدأت بزعامته على بنى قومه وموقفه من بناء الدولة الإسلامية وانتصاراته التى أزهلت الناس وتشييده أعظم امبراطورية فى التاريخ كل هذا يجعل لعمر نوعا من العبقرية .

وينتقل إلى الحديث عن صفاته فيبدأ بالقول « نحن على هذا أمام رجل لا كالرجال . رجل عبقرى أو رجل ممتاز من خاصة الخليفة الذين

لا يفدون فى الزمن الواحد بأكثر من الآحاد . . » فمن صفاته أنه كان قوياً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانى ، وكان عادلا لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه فهو من أبنية بيوت بنى عدى الذين تولوا السفارة والتحكيم فى الجاهلية وغيرها من الصفات الحميدة ونقطع مع العقاد عدداً من الصفحات

**حتى نجد مفتاح شخصية عمر بن الخطاب وقد عثر على هذا المفتاح فى «طبيعة الجندى» أصدق مفتاح للشخصية العمرية » فى جملة مايؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظيم .**

**فاهم الخصائص التى تتجمع « لطبيعة الجندى » فى صفتها المثلى الشجاعة والحزم والصراحة والخشونه والغيرة على الشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والايمان بالحق وحب الانجاز فى حدود التبعات او المسئوليات .**

**ومفتاح شخصية عمر هو فى طبيعته كجندى كما عرفنا ولكن فى جانبها الحكيم .**

ويتناول بعد ذلك إسلام عمر بن الخطاب وكيف كان هـــذا الإسلام عزة للإسلام نفسه وها هو العقاد يصف إسلام عمر فيقول : « كان مسلماً شديداً فى إسلامه ، فلم تكن شدته فى إسلامه خطراً على الناس ، بل كانت ضماناً لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمى ولا مشرك فى غير حدود الكتاب والسنة .

وكان جاهلياً فأسلم . فأصبح إسلامه طوراً من أطوار التاريخ ، ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية منشئة فى التاريخ الإنسانى لما كان إسلام ، هذا الرجل طوراً من أطواره الكبار » .

ولا شك بعد أن عبر لنا العقاد هذا التعبير العظيم الذى يتناسب

وإسلام ابن الخطاب نراه بعد ذلك يعدد ما استفادته الدولة الإسلامية من هذا الصحابى الجليل، ثم يقدم لنا علاقة عمر بالنبى الكريم وبالصحابة إلى أن يصل إلى ثقافة عمر . وكيف أنه كان وافر الحظ من ثقافة زمانه ، وأنه كان أديبا مؤرخا فقيها مشاركاً فى سائر الفنون ، خطيباً مطبوعا على الكلام .

**عبقرية الامام :**

**فى عبقرية الامام على كرم الله وجهه الذى التقت فيه ملامح العبقرية من جميع نواحيها فامتزجت العاطفة فى مصرعه بخيال الشجاعة فى بطولته ، كما التقى سمو الفكر فيه برهافة الحس الأدبى عنده ،وفى وسط هذا الطريق الشائك يبحث العقاد عن مفتاح الشخصية الامام وسرعان ما يعثر عليه وهى آداب الفروسية .**

**( آداب الفروسية ) هى مفتاح هذه الشخصية ، وآداب الفروسية هى تلك الآداب التى نلخصها فى كلمة واحدة وهى ( النخوة ) .**

وقد كانت النخوة من الأمور التى فرض عليها على كرم الله وجهه، وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية تلك التى نشأ فيها ، وعادة من عادات « الفروسية » العملية التى يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران، وإن لم يطبع عليها وينشأ فى حجرها . لأن للغلبة فى الشجاع أنفة تأبى عليه أن يسف إلى ما يخجله ويشينه ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلماً وتمنعه أن يعمل فى السر ما يزرى به العلانية .

والإمام على كرم الله وجهه بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى ، ولا سيما فى معاملة الضعفاء من الرجال والنساء . . فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة ولم يساوره الريب قط فى الشرف والحق أنهما قائمان

دائمان كأنهما مودعان فى طبائع الأشياء . فإذا صنع ما وجب عليه فليس من شاءوا ما وجب عليهم وإن أفادوا كثيراً ، وباء هو بالخسارة .

والعقاد حين يحدثنا عن صفات الإمام على يقول أنه أول هاشمى من أبوين هاشميين لذلك اجتمعت له خلاصة الصفات التى اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها فى كثير من أعلامها المقدمين وهى فى جملتها النبل والشـجاعة والمروءة والذكاء ، بعدا المأثور فى سماتها الجسدية التى تلاقت أو تقاربت فى عدة من أولئك الأعلام وهذه الصفات أتاحت للإمام على التفوق فى أمور كثيرة ، كما أتاحت له افادة الإسلام على ما رأينا بعد ذلك .

وعن إسلامه نجد العقاد يعقد لهذا فصلا فالإمام على ولد داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ، فكأنما كان ميلاده ثمة ايذاناً بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها .

وكاد على أن يولد مسلماً .

بل ان العقاد يقرر بأنه ولد بالفعل مسلماً اذا نحن نظرنا الى ميلاد العقيدة والروح .. لأنه فتح عينيه على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام . وتربى على ما نعلم جميعا فى البيت الذى خرجت منه الدعوة الإسلامية وعرف العبادة من صلاة النبي وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة .

وينتقل العقاد للحديث عن عصور كل من أبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عنه حيث كان عصره عجيبا بين ما تقدمه في أعقابه أو هو لم يكن عجيبا لأنه جرى على النحو الذى ينبغى أن يجرى عليه فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب . لأنه كان بناء جديداً في سبيل التمام ولم يكن بناء متداعيا فكله هدم واندثار ، والعجيب انقسم قسمين متقابلين : في أحدهما كل عوامل الرضى عن النظام الاجتماعى والرغبة في بقائه وتدعيمه ، وفى الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعى والتحفز لتعويضه وتحويله .

ويناقش العقاد بيعة الإمام على وسياسته وحكومته ثم علاقة الإمام بالرسول صلى الله عليه وسلم ثم بالصحابة ويختم الكتاب بالحديث عن ثقافة الامام على وأثرها فى كونه رجل محاوب مفاضل .

عبقرية خالد بن الوليد :

في هذا الكتاب يصور لنا العقاد العبقرية الحربية المظفرة لخالد ابن الوليد،وما امتازت به من صفات القائد العظيم المفطور على النضال والشجاعة والجلد واليقظة وحضور البديهة ، وسرعة الملاحظة وقوة التأثير ووضع الخطط عند الحاجة اليها في موضعها الدقيق ويظل يتدارس جوانب شخصيته الى ان يعثر على مفتاحها وهوسليقته كجندى وهو نفس سليقة عمر بن الخطاب .. الأثنين مفتاح شخصيتهما الجندية ولكن هناك فرق بين الأثنين فجندية ابن الخطاب حكيمة بينما جندية ابن الوليد هاجمة . ولاريب ان هذا الفارق بين الفاروق عمر وسيف الله المسلول انما هو قبل كل شيء فرق بين نفسين او بين رجلين او بين شخصيتين او بين وسطين اجتماعيين .

وهناك ملاحظة يسوقها العقاد حول سيرة خالد وهى ولعه بالحرب.
لم يكن ولعا بالشر والسوء ولا ولعا بالضغينة والبغضاء وكانت عداواته
كلها عداوات جندى مقاتل ولم تكن عداوات مضغن آثم ، ولم يعرف
قط عنه أنه حمل الضغينة لاحد من الناس . ولو كانت هذه الضغينة
تعرف طريقها إليه . . لحقد على عمر بن الخطاب يوم عزله من قيادة
الجيش وجعله جنديا فى جيش المسلمين . بل سامح عمر وبرر فعلته هذه
والعقاد حين يحدثنا عن خالد بن الوليد يمهد لهذا الحديث بصفحات
عن البادية والحرب . ثم عن قريش ومخزوم بعدها يقدم خالد بن الوليد
فى نشأته فيقول عنه : كان أغنى أبناء زمانه فى صفوف الثراء المعروفة
بينهم كافة : الذهب والفضة والبلاتين والكروم والتجارة والعروض ،
والخدم والجوارى والعبيد وسمى من أجل ذلك بالوحيد ، ولقب من
ذلك بريحانة قريش .

وهو الذى قال فيه القرآن الكريم من سورة المدثر — ذرنى ومن
خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا .

ويروى سفيان الثورى أنه كان يملك ألف ألف دينار ويروى
ابن عباس أنه كان يملك من الفضة تسعه آلاف مثقال » .

والعقاد بعد أن ينتهى من الحديث عن نشأة خالد بن الوليد وكيف
كان لها أثر فى مسار حياته بعد ذلك . ينتقل الى قصة اسلامه . وكم كان
العقاد بليغا حين استهل هذه القصة بالقول كان اسلام خالد ضربا من
التسليم .

وعلى الرغم من أن العقاد يقص التسليم بمعناه العسكرى الا أنه لم يكن

تسليمه تسليم العاجز المتوكل ، ولا الجازع المتخذل .. بل لعله بلغ من نفسه غاية الثقة بالقدرة وحادى اليقين بالخبرة .. يوم اسلم وسلم إلى معسكر الدين الجديد كأنه آمن بالله لأنه علم من ذات نفسه أنه لن يغلبه إلا الله .

إن العقاد يفسر اسلام خالد فى كلمة صغيرة هى : « بلغ نهاية الإيمان بنفسه يوم بلغ بداية الإيمان بالله .. »

وتكون الصفحات التالية لتقديم خالد الجندى الذى يحقق للاسلام أعظم الانتصارات وها هو يعيد المرتدين إلى حظيرة الإسلام ويقود حرب الفتوح إلى أن يتولى عمر بن الخطاب فيعزله من قيادة الجيش . وأخيرا يحدثنا عن عبقريته الحربية .

## ثانيا . الشخصيات

**فى تقديمه لمعاوية بن أبى سفيان فرق العقاد بين القدرة والعظمة ، بين الشخصيات والعبقريات حيث قال : ربما وصف الرجل بالقدرة لأنه مقتدر على بلوغ مقاصده واحتجان منافعه والاضرار بغيره ، ولكنه اذ وصف بالعظمة** فإنما يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الانسانية العامة وخير تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه — ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح إذا نقلنا التفرقة من القدرة والعظمة إلى التقدير والتعظيم فنحن نقدر الإنسان بمقداره عظيما كان أو غير عظيم ، بل نقدر الأشياء بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل ولم تكن من وراء العمل نية . ولكننا إذا عظمنا الإنسان فإنما نوجب له التعظيم علينا لأنه يعنينا ويستحق إكبارنا ويرتفع إلى المكانة التى تلحظها الإنسانية بأسرها

وتعود عليها فى منافعها وخيراتها . .

فكل عظيم قدير .

ولكن ليس كل قدير بالعظيم .

والعظمة قدرة وزيادة . ومعاوية قدير ولاريب .

أما القدرة فليس من اللازم أن تكون عظمة فضلا عن أن تكون عظمة وزيادة . . . . »

بهذه العبارة حدد العقاد الفرق بين الشخصيات المقتدرة ، والعبقريات العظيمة .

وهناك عبارة أخرى جاءت فى كتاب « رأيت وسمعت » لمحمد كرد على تزيدنا توضيحا لما يعنيه العقاد من قوله هذه شخصية ، وتلك عبقرية يقول العقاد فى هذا الكتاب : « منذ انطلق قلبى وعقلى وفكرى وأنا أقف فى الجانب المعارض للجاه والسلطان والجبروت . . الملك فؤاد سجننى تسعة أشهر . . وغيره أقام على النكير والدعاوى المختلفة ، ولكنى لم اذعن رغم كل ذلك لرغبات السياسة . ولقد أخذت من التاريخ أمثلة أولها أن على بن أبى طالب لوكان وصوليا لانتهى على فى يوم موته . ولوكان الحسين بن على لم يسبق أجله بعشر سنين أى لم يبع ماتبقى له من العمر بذلك الاستشهاد لما ربح هذا الخلود العظيم هو وأبوه من قبله وابناوءه الذين درجوا على بساطه الأحمر ... قال لى مرة الأستاذ محمد كرد على : لماذا لم تكتب لنا كتابا عن معاوية كما كتبت عن على ؟ فأجبته : أنا أعرف أنك وصولى مع الأحياء ، ولكننى لاأعرف أنك وصولى حتى مع الأموات ، إن صاحبك معاوية أراد الدنيا وأراد منها

أن يكون ملكا فكان ثم مات فماذا يريد بعد هذا ؟ الذى يطمع أن يكون ملكا أووزيرا أونائبا ثم ينتهك كل الحرمات ليصل إلى شهوته .. أوتريد بعدهذا أن نخرله ساجدين فى حياته وبعد موته ..»

العقاد فى هذه العبارة التى سجلها عليها محمد كرد على يفرق بوضوح بين الشخصية والعبقرية .. ذلك أن على بن أبى طالب كان عبقريا .. وعلى هذا فلابد أن الخليفة الذى على شاكلته عبقرى أيضا .. ولكن العقاد يرفض هذا ويعتبر معاوية شخصية وليس عبقريا . يعتبر مقتدر وليس بالعظيم .

ومن هنا يتضح أن العقاد وضع العبقريات فى مكان أرفع من الشخصيات وإلا فلماذا وضع معاوية فى الشخصيات وكذلك عثمان بن عفان فى الشخصيات ؟

وهاهو حين يقدم شخصية عثمان بن عفان .. يؤكد بأن سيرته لاتبرز لنا عبقرية قبل عبقرية الصديق أوعمر بن الخطاب أو الامام على أوخالد بن الوليد . ولكنها تبرز لنا من جانب الأريحية صفحة لاتطوى ولايستطيع العقل الرشيد أن يرجع بها إلى باعث غير باعث العقيدة والإيمان لذلك فهو لايؤمن بالعبقرية لعثمان رضى الله عنه بقدر مايؤمن بأنه ذو النورين نور اليقين ، ونور الخلق الأمين .

أوهذه الشخصيات حين يتناولها العقاد بالبحث فإننا نلاحظ هذه الأمور :

هى — الشخصيات — ليست صور أعلام ذوى حظ واحد فى القدرة والكفاية . ولوأنها كانت كذلك لما غض ذلك من شأنها ،

فمن كان يعرف حرفا واحدا من أبجدية الكفايات الإنسانية فهو على حظ كبير من المعرفة الإنسانية ولكن لاشك أقل وعيا ممن يعرف جملة حروف منها وتراجم العقاد تمثل عدة أنماط من القدرة الشخصية ومن ذلك" مقدرة الشعر والكتابة والفلسفة والموسيقى والتصوير والعلم والإدارة والسياسة والحرب .

يغلب على التراجم أنها لاتؤدى أبرز ملامح صاحبها وأعماله فحسب، بل تنفذ إلى محور شخصيته الذى تدور عليه شمائله ومساعيه وأعماله وأقواله وتميز ملامحه من ملامح اشباهه فى طراز قدرته ونعلل أسباب ذلك أو نفسرها سواء أذكر ذلك المحور فى الترجمة أم لم يذكر .

تدل معظم التراجم إلى نمط القدرة التى تشمل هذه الشخصية ومن يشبهه وإن لم يماثله . فأنت إذا عرفت قسمات هذه الشخصية وحدودها ، وصادفت تلك الملامح فى إنسان آخر حكمت له بمثل ماحكمت للأول أيا كان حظه دون خلط .

يغلب على التراجم أن تنفذ بنا إلى حقيقة قدرة الشخصية بعامة ، واختلاف نمطها عن انماط الكفايات والقدر الأخرى فلانخلط بين هذا وغيره من ذوى المواهب والملكات التى ترفع صاحبها على الغمار أو لاترفعه .

فى تراجم العقاد سر آخر غير كثرة صور اعلامه هذا السر هو سهولة الأداء عن كل ذى قدرة أيا كان نوع قدره وحظه منها ، ثم اتساق أجزاء صورة كل عظيم من هؤلاء العظماء مستقلة على غيرها . ولهذا تبدو الترجمة وكأنها خرجت من قريحة صاحبها فقبلتها . براعته دفعة واحدة شأنها شأن بدء الحياة فى خروجها من الأرحام إلى أيادى القوابل .

إن العقاد كان ينفعل مع شخصياته أثناء كتابتها حتى أنه يذكر أنه كان يكتب الفصل الواحد من « الحســـين » وعيناه مغرورقتان بالدموع . مع أنه يفترض فيه كمؤرخ أن يكون محايداً ولكن ماالعمل وهو أديب فنان يحس قبل أن يكون مؤرخا يسجل .

وكتابة التاريخ بهذه الصورة الأدبية أسلوب لم يبتدعه العقاد فقد سبق أن استخدمه كتاب أجانب مثل « بلوتارك » و « توماس كارليل» و « ليتون استرتسى » و « اندريه مروا » و « إميل لدفيج » وكتاب عرب فى مقدمتهم الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين والدكتور أحمد أمين .

وبهذا الأسلوب . . أسلوب التفريق بين العبقرية والشخصية ، بين العظمة والقدرة كتب العقاد تراجم شخصياته وهى « فاطمة الزهراء والفاطميون » . و « الصديقة بنت الصديق » و « أبو الشهداء الحسين ابن على » و « ذو النورين عثمان بن عفان » ، و « بلال بن رباح » و« عمرو ابن العاص » و « معاوية بن أبى سفيان فى الميزان » و « المسيح » و « أبو الأنبياء إبراهيم الخليل » .

* * *

**فاطمة الزهراء والفاطميون :**

عندما يتناول السيدة فاطمة يرى أن الحديث فى حياتها قد تكتب له تراجم وليس ترجمة واحدة . فقد تكتب لها ترجمة لأنها إبنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد تكتب لها ترجمة لأنها زوج على بن أبى طالب ،

وقد تكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين ولكن العقاد يرى أنه الأولى بالترجمة هو لأنها فاطمة الزهراء ، ولأنها مصدر من مصادر القوة التاريخية التى تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير .

وهذا فعلا ما قصد إليه العقاد بكتابة هذه السير ، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المنتسبين إلى فاطمة .

فالكتاب فى قسمه الأول يقدم لنا فاطمة الزهراء وأمها السيدة خديجة رضوان الله عليهما ، ثم يبين كيف كانت نشأتها وتربيتها فى البيت النبوى الشريف ، ثم زواجها من على بن أبى طالب رضى الله عنه وكم كان فى هذا الزواج من أمثلة للتواضع والزهد يقدم لنا بعد ذلك بلاغتها وثقافتها ولا شك أن إنسانة يكون أبوها محمد صلى الله عليه وسلم وزوجها على بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو وأحد القلائل الذين تمكنوا من معرفة سر البلاغة . . لاشك أن واحدة لها نفس الظروف لابد وأن تكون بليغة ذات ثقافة واسعة .

وعن شخصيتها يشير العقاد إلى حقيقة هامة تتصل بالسيدة فاطمة رضى الله عنها وهى أن هذه السيدة العظيمة أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء فى التاريخ لأنها بنت نبى ، وزوجة إمام ، وأم شهداء . .

« لكن — الكلام هنا للعقاد — لايتضح هذا الرضوخ ولا يبين هذا البيان أنها تأخذ مكانها هذا « بحقها الشخصى » أو بصفاتها التى كان لها أثر فى حوادث التاريخ » .

والسيدة فاطمة تعتبر أصلا قويا من أصول الدعوة التى ثبتت فى مجرى الزمن أجيالا طوالا ولم تزل لها آثارها فى عصرنا هذا وفيما يلى من العصور ، ثم يحدثنا عن ذريتها .

ينتقل العقاد بعد ذلك إلى القسم الثانى من الكتاب ويدور حول الفاطميين . . فكل أبنائها فاطميين ثم يتحدث عن نسب هؤلاء الفاطميين ، وعلاقة هذا النسب بالمطالبة بالخلافة .

ويوضح العقاد قصة علاقة الباطنية بالفاطميين، هؤلاء الباطنيون الذين كان لهم أثر بالغ فى تنفير الناس من الفاطميين ويختم هذا القسم من الكتاب بالحديث عن بعض شخصيات الفاطميين . وهذه الحضارة المختضرة فى مصر . . وهى حضارة الفاطميين .

## عثمان بن عفان

**تعتبر سيرة الخليفة الثالث عثمان بن عفان .. نمطا من أنماط متعددة زخرت بها الدعوة الاسلامية مثل سير الخلفاء أبى بكر ، وعمر ، وعلى ، وامثالهم من الصحابة والتابعين : فكل منهم كان عظيما بمزية ، وعلماً من أعلام التاريخ .**

ويرجع العقاد فى كتابه « ذو النورين عثمان بن عفان » عظمة هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم إلى العقيدة الدينية التى ملأت قلوبهم ، وإلى الرسالة المحمدية التى كانوا أول من آمن بها وناصرها .

وقبل أن يتناول العقاد شخصية عثمان رضى الله عنه بالدراسة نراه يمهد بفصل يذكر فيه هذه المشقة أو « الصدمة » على حد تعبيره التى تقابل الباحث فى تاريخ عثمان . إذ كان مصرعه وهو شيخ فى الثمانين

من عمره . ولـكن بعد الصدمة يقرر العقاد حقيقة مؤداها أن عثمان رضى الله عنه لم يكن ليعبأ بأن يضع حراساً على بيته ليمنعوا هذه الجمهرة المشاغبة من قتله . ويتساءل العقاد : هل ما حدث لعثمان رضى الله عنه كان من الممكن أن يحدث لوال من ولاته المنتشرين فى أرجاء البلاد كمعاوية مثلا ؟ بعد هذا يتطرق إلى أسباب الفتنة التى كانت نتيجتها ثالث الخلفاء الراشدين .

كل هذا كان تمهيداً لدراسة شخصية عثمان رضى الله عنه وهو من أسرة بنى أمية العريقة النسب ، وقد ضرب بإسلامه مثلا . فها هو يلتقى بأبى بكر رضى الله عنه ويدعوه إلى زيارة النبى صلى الله عليه وسلم وتتم المقابلة ومن بعدها يبادر بإعلان إسلامه :

ويحدثنا العقاد عن نشأة عثمان فيؤكد أنه كان موفور الرزق . وكان أقرب إلى صفات الطيبة والسماحة منه إلى صفات البأس والصرامة، وقد صاحبته هذه السمة طوال حياته . .

والعقاد يرسم صورة هذا الخليفة فيقول : « إن شخصية عثمان بما اشتملت عليه من نواحى قوتها وضعفها شخصية سوية لا تناقض بين ما علمناه عن أخبارها وبين ما نرجحه من المؤثرات فيها من فعل البيئة ووراثته الأموية . ويتمه فى صباه ونشأته فى بيت يتولاه غير أبيه ، وانتماؤه من جانب الأمومة إلى بيت عبد المطلب : وعلينا أن نشير إلى مؤثر آخر يلحق بهذه المؤثرات ، ولا يورد على أنه مؤثر يتواتر فى جميع الحالات ، ولـكنه يورد لأنه لا يهمل فى اعتبار بعض النفسانيين .

ذلك السبب هو إصابته بالجدرى فى شبابه . وعند بعض النفسانيين أن الجدرى يعقب أثرا فى بنية المصاب به إذا أهمل علاجه — بعد سن الطفولة خاصة — وليس إهمال علاجه يومئذ بالأمر البعيد » .

ونستطيع أن نلمح ثقافة عثمان رضى الله عنه من بين سطور كتاب العقاد تلك التى تذهب إلى أن كتب عثمان إلى ولاته وخطبه تحمل الكثير عن بيانه وثقافته إلى جانب أنها تحمل معنى الأسلوب الرسمى أو أسلوب التشريع والوثائق القانونية : تبليغ وتقرير بغير تمميق ولا محاولة تأثير . وهذه صورة جديدة فى الكتابة استحدثها عثمان رضى الله عنه .

وعن الخلافة يذهب العقاد إلى أن عثمان رضى الله عنه تولى أصعب خلافة فى صدر الإسلام وقد كانت ثورة المرتدين فى أول خلافة الصديق محنة شديدة نهض لها المسلمون جميعاً متساندين متآزرين فأبتلى عثمان فى أول خلافته بما يشبه تلك الثورة ويزيد عليه الخلاف فى الداخل والتغير فى الدواعى النفسية ، وهو أخطر المصاعب جميعاً . إذ تحدث فى عهده أول فتنة فى الإسلام .

وعن فضل عثمان يقول العقاد أنه لا يوصف بأكثر من أنه مشاغبة دهماء لم تجد من يكبحها ، وأن تقصير عثمان فى حق نفسه كان أكبر من تقصيره فى حق الرعية فقد اغتفر ما لا يغتفر من العدوان عليه فى حضرته . وكانت النتيجة أن قتل والمصحف بين يديه .

**الصديقة بنت الصديق :**

**حين ترجم العقاد للسيدة عائشة الصديقة بنت الصديق قدمها**

**لآثار مجتمع عربي ناشيء على الأصوات الأولى بالاسلام ، وبأنها ازدهرت من بنات جلسها برعاية لم تشاركها فيها غيرها من الولائد ، فقد تربت على النعمة ، وشبت على العزة والكرامة ، وتعلمت الكتابة .. وينتهي العقاد في كتابه هذا بالنتيجة الى أن عائشة تمثل المرأة المسلمة في أرفع مثلها حيث تمثلها في حقوقها وتمثلها في مثاليتها الكريمة .**

فإن كانت هذه نظرة عامة لما يحوى كتاب الصديقة بنت الصديق من أفكار ومعانى . فإن تفاصيل هذه النظرة تبدأ بالحديث عن المرأة العربية وكيف كان العرب ينظرون إليها نظرة طبيعية مرتجلة . والعقاد يعنى بالنظرة المرتجلة أنها النظرة الطبيعية التى لايشوبها إحساس دخيل من وهم العقائد أو حكم التشريع ولكنها تمضى على الفطرة التى توجبها ضرورة الساعة أو ضرورة البيئة ، وتختلف حسب اختلاف هذه الضرورات : ويقرر العقاد أن العرب لم يضربوا اللعنة على المرأة فى جاهليتهم وجاء الإسلام من النهاية . . التى انتهت إليها آداب الحضارة والسيادة وهى خلاصة العرف الذى تعارف عليه سادة الحضر فى معاملة المرأة وليس سادة القبائل فى البادية . وجعل هذا العرف حقاً مكتوباً على الرجال لكل إمرأة . ثم زاد هذا العرف منزلة من الرعاية لم تصل إليها أرفع النساء فى أرفع البيوتات قبل الدعوة المحمدية فالمرأة فى شريعة الإسلام إنسان مرعى الحقوق والواجبات أو ليس الإسلام هو الذى قال عنها ولهن « مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

ويبدو أن كل ما تقدم كان تمهيداً للمرأة الخالدة تلك التى قدمها لنا العقاد بأن السيدة عائشة هى هذه وهى تلك .

ويتلى ذلك بفصل عن تاريخها وكيف أنها امتازت منذ حداثة سنها

بالذكاء ، وكيف أنها أسلمت وهاجرت ولقيت عنتاً شديداً فى سبيل دينها وزوجها محمد صلى الله عليه وسلم . ومن جملة أوصافها أنها كانت بيضاء فالنبي الكريم كان يلقبها بالحميراء ، وأنها كانت جهورية الصوت حية الطبع موفورة النشاط ، وأنها ورثت الكثير عن والدها الصديق أبو بكر رضى الله عنه .

ويفرد العقاد فصلا عن زواج النبي صلى الله عليه وسلم من عائشة فقد ماتت زوجته الأولى خديجة بعد عشرة طالت إلى خمسة عشر عاما حتى أنه قيل أن الرسول الكريم ظل حزيناً على موت خديجة عاماسماه عام الحزن ، وقد تزوج بعده ابنة صديقه أبو بكر وهى السيدة عائشة رضى الله عنهما .

وتختلف ــ كما يقول العقاد ــ الأقوال فى سن السيدة عائشة يوم زفت الى النبي صلى الله عليه وسلم . فالبعض يحسبها فى التاسعة من عمرها ويرفعها البعض فوق ذلك بضع سنوات .

بعد ذلك يخصص العقاد فصلا عن حديث الأفك وحديث الأفك هذا هو الذى أشاعه بعض المنافقين عن السيدة عائشة رضى الله عنها وهو حديث اجتمعت له كل بواعث الفضول والوشاية التى تغرى الناس بالخوض فى أمثال هذه الأحاديث ولو كانت من نسج الخيال والحق أن حديث الأفك هذا كان له غرض المساس بالنبي وبالإسلام وقد قام به زعيم الخزرج فى المدينة .

ويرفع الرسول الى الرفيق الأعلى ويترك من ورائه أرملته الشابة عائشة كأم للمؤمنين . لها رأى فى كل ما يدور حولها من أمور سياسية أو اجتماعية .

**الحسين ابو الشهداء :**

**فى تناوله لشخصية ابى الشهداء الحسين بن على رضى الله عنهما يصور لنا العقاد مأساة تاريخية كبيرة . ومن اجل ذلك نجده ينفذ الى لباب الوقائع والتواريخ لتمحيص الحقيقة من وراء المذاهب والأهواء فى سيرة ابى الشهداء ، وفى تناوله لهذه الشخصية العامة يصور لنا أسباب النزاع السياسى من ايام الجاهلية الى أيام الدعوة الاسلامية فى صورة حية تتمثل فى أعمال ابطالها وحركات رجالها .**

والعقاد حين يتنـاول شخصية أبى الشهداء الحسين بن على بالدراسة يبدأ أولا بدراسة طبائع النـاس وكيف أن هذه الطبائع يتناوبهـا مزاجان متقابلان : **مزاج يعمل أعماله للاريحية والنخوة ومزاج يعمل أعماله المنفعة والغنيمة .**

والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال .. فقد تقترن الاريحية بالمنفعة وتقترن المنفعة بالاريحية ولكنهما اصطدما ولاسيما فى الأعمال الكبيرة . وحيـاة الحسين بن على رضى الله عنه صفحة . لاصفحة تماثلها فى توضيح الفارق بين خصائص هذين المزاجين وبيان ما لكل منهما من عدة للنجاح فى كفاح الحيـاة سواء نظرنا إلى الأمد البعيد أو قصرنا النظر على الأمد القريب .

وعن أسباب التنافس والخصومة بين الحسين ، رضى الله عنه ، ويزيد بن معاوية يقول العقاد بأن الأسباب ترجع إلى أجيال وكان هذا التنافس والخصومة بينهما يرجع إلى كل سبب يوجب النفرة بين رجلين : من العصبية الى التراث الموروث الى السياسة الى العاطفة الشخصية ! ! ابختلاف الخليقة والنشأة والتفكير هو تنافس بنى هاشم وبنى أمية على

على الزعامـــة قبل أن يولد وأبوه معـــاوية .

يتبع هذا الفصل عن الخصمان موازنة بينهما . فهناك إختلاف في النشأة بين الإثنين والنسب والمكانة والصفات ، والخلق ، والشجاعة وهى أمور جد اختلف الإثنان فيها بما أدى فى النهاية إلى الخصومة ، بل وأى شىء آخر غير الخصومة كان مستغربا بين الاثنين .

وبديهى جداً أن يكون والخصومة قائمة - أعوان لكل خصم . . هم رجال المعسكرين وبالطبع إختلاف أنصار يزيد فمنهم من هو طامع فى مال أو مستميت فى طمعه استماتة من يهدر الحرمات ولا يبالى بشىء منها فى سبيل الحطام ولم يكن معه رجال ذوى رأى . إن **العقاد يصفهم وصفا دقيقاً حين يقول فى كلمة صغيرة « كان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد فى صيد كبير »** ومنذ أن قضى على يزيد بن معاوية أن يكون هؤلاء وأمثالهم أعواناله فى ملكه قضى عليه من ساعتها أن يكون علاجه لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك الدماء والذين يسفكون كل دم أجروا عليه ، بينما نرى أعوان **الحسين** يختلفون تمام الاختلاف عن هؤلاء الأعوان الكريهين وما أبلغ **العقاد** حين قال عن أعوان هذا وأعوان ذاك هذه الكلمة :

**كان ليزيد أعوان إذا بلغ أحدهم جده فى معونته فهو جلاد مبذول السيف والسوط فى سبيل المـــال »**

وكان **للحسين** أعوان إذا بلغ أحدهم جده فى معونته فهو شهيد يبذل الدنيا كلها فى سبيل الروح . ؟

إذن فهى حرب جلادين وشهداء .

والكتاب يحدثنا بعد ذلك عن خروج الحسين إلى مكة ، وكربلاء ونهاية المطاف .عارضا لناقصة أبى الشهداء والدم المسفوك على الأرض العربية .

## داعى السماء بلال بن رباح

وفى تحليله لشخصية داعى السماء بلال بن رباح . . ذلك الرجل الأسود القريب إلى قلب رسول الله والصحابة يقدم العقاد مثلا رائعاً لموقف الاسلام من العبقرية وكيف كانت للاسلام كلمة سابقة على غيره من الحضارات القديمة . . فى إنصاف الاجناس والعناصر واحترامها ، وإلغاء التفرقة العنصرية . وفى هذا الإطار يحدثنا العقاد عن نشأة بلال بن رباح وإسلامه وصفاته ولماذا اختاره الرسول لكى يكون أول مؤذن فى الإسلام .

ويمهد العقاد للحديث عن بلال بن رباح رضى الله عنه بالحديث عن مسألة العنصر — الجنس — تلك المسألة الاجتماعية التى أصبحت كثيرة الورود على السنة المعاصرين واقلامهم. ولكنها على هذا من أقدم مسائل الاجتماع التى وجدت مع وجود القبائل الأولى . فيعرض لنا آراء وأبحاث عدد من العلماء وخبراء الاجتماع فى هذه المسألة بالذات وكلها أبحاث حديثة تخلص إلى أن الحضارة الغربية أبطأت فى تقرير مبدأ الإنصاف بين هذه الاجناس المختلفة . بينما نجد أن الشريعة الاسلامية كانت سباقة إلى هذا الانصاف والمساواة بين بنى الإنسان منذ أربعة

عشر قرنا بغير ما حافز من المصالح الاقتصادية أو من عادات العرف والأخلاق .

إلى أن يقول : والذي يعنينا في هذه المقدمة هو تاريخ الأجناس والجنس الأسود خاصة أن نجمع الملتقى بينها وبين صاحب هذه السيرة بلال بن رباح .

وبعد أن قدم العقاد في الجزء الأول من كتابه أقوال وآراء العلماء في مسألة الأجناس وفوارقها يحدثنا عن العرب والأجناس . كيف كان العرب يعاملون الأجناس غير العربية ؟ هل كانوا يحقرون من شأنهم؟ وغيرها من الأسئلة التي تقوده إجاباتها إلى تقديم بلال هذا الإنسان الذي كان من أضنك العبيد حالا قبل الإسلام ، وكانت حال العبيد هي السوأى بين طبقات المجتمع العربي في الجاهلية . ظلما للضعيف لا عداوة للجنس أو كراهة للسواد فقد كان شأن العبيد كشأن كل صعلوك وضيع النسب قليل العضد غير محسوب له حساب في شريعة الثأر والدية وكان العبيد أسوأ حالا من وضعاء النسب لأنهم لا ينتسبون إلى أحد معروف ولا يروع الظالم عن ظلمهم شرع ولا عرف ولا عقيدة . فكانوا ضحايا الظلم والتفرقة في المنازل والأقدار ، وكان خلاصهم كله في عقيدة تنكر الظلم لأنه قسوة كما تنكره لأنه ينقض شريعة المساواة . وقد تكفل الإسلام بهذا الخلاص من جانبين ، لأنه ينكر ظلم القسوة وينكر ظلم الاجحاف والمحاباة .

ثم يخلص العقاد إلى فصل عن الرق في الإسلام وكيف أن الاسلام

حاول أن يحسن أحوال الارقاء ومنع الاتجار بهم ويبدو أن كل هذا كان تمهيداً لدراسة شخصية بلال .

ثم يقدم لنا كيف نشأ بلال كابن من أبناء الحبشة المولدين الذين كانوا كثيرين فى اليمن من قديم الزمن . وقد كان بلال يكره حياة الجاهلية . وما أن سمع عن الإسلام ونبى الإسلام حتى أسرع ليسلم .

والعقاد حين ينتهى من قصة اسلام بلال وما كان بها من ملابسات ينتقل الى صفاته الخلقية تلك التى جعلته من السابقين إلى الإسلام .

**معاوية ابن ابى سفيان فى الميزان**

الخلاصة التى يمكن أن يخرج بها القارىء من هذا الكتاب أن تاريخ معاوية بن أبى سفيان لايحتاج الى مزيد من تفصيل ، وانما يحتاج تاريخه وتواريخ النابهين جميعاً الى تصحيح الموازين وبيان المداخل التى تؤتى من قبلها أحكام الناس على الحوادث والرجال ، فتصاب بالخلل أو تنقلب رأساً على عقب . ويصاب بالخلل معها تفكير المفكر ونظرة الناظر وادراك المدرك لما يحيط به من حوادث زمنه وحوادث سائر الأزمنة .

ونحن نفهم تاريخ معاوية ونفهم معه تواريخ الكثيرين من بناة الدول اذا صححنا الموازين وعرفنا ما يعرض لها من الانحراف عن قصد أو عن شعور غير مقصود .

ولكننا لانعرف تاريخ معاوية ولاتواريخ غيره اذا أخذنا بظواهر

الاقوال ولم ننقب وراءها عن بواطن الاهواء والبواعث الخفية ، ولابد منها فى هذه المرحلة بذاتها : مرحلة الدولة الأموية الأولى على التخصيص .

لقد كان قيام الدولة الأموية بعد عصر الخلافه حادثاً جللا بالغ الخطر فى تاريخ الاسلام ، وتاريخ العالم .

وما كان أحد ليطمع فى بقاء عصر الخـــلافة على سنة الصديق والفاروق أبد الابدين ودهر الداهرين ، لأن أطراد النسق من ولاة الأمر على هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوى أمر تنوء به طاقة بنى الإنسان .

فما كان دوام الخلافة الصديقية أو الفاروقية بمستطاع على طول الزمن وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذى يؤجـــل الى زمن بعيد .

ولـكن الملك بعد الخلافة كان على مفترق طريقين : كان فى الوسع أن يسير على مشابه الخلافة ملـكا باراتقيا مصونا من بذخ الهرقلية والـكسروية وسائر ضروب الملك فى عصوره الخالية .

وكان فى الوسع أن يسير على مشابه الملك فى العصور الخالية بذخا ومتاعا وزينة وخيلاء كخيلاء العواهل من القياصرة والشواهين .

كان فى الوسع أن يبتدىء الملك فى تاريخ العالم على النهج الصديقى أو الفاروقى وان لم يبلغ هذا المدى من النزاهة والصلاح ، وكان هذا النهج خليقاً أن يظل إماما للرعية يتوارثونه ويقتدون به ويحميهم من

فتكسة الأخلاق والآداب قرونا وراء قرون من بقايا الوثنية وأوشاب المادية وماشابهها من آداب تدور على النفع العاجل وتقبل المعاذير منه في أخطر الأمور .

كان فى الوسع هذا ، وكان فى الوسع ذاك .

ونشأة الدولة الأموية على مفترق هذين الطريقين هى الحادث الجلل فى صدر الاسلام ، وهى الحادث الجلل الذى يقرر تبعتها فى التاريخ الاسلامى بل فى التاريخ العالمى كله .

ورأس الدولة الأموية ، معاوية بن أبى سفيان ، وهو صاحب هذه التبعة التى يجب ان تتقرر بأمانتها العظمى فى ميزان لاتلعب به المنافع المقصودة أو المنافع التى هى أخطر منها على الحقيقة ، وهى منافع الطبائع المستسلمة لأيسر المعاذير ، يشق عليها الصعود إلى المثل الاعلى ولو بالأمل وحسن المظنة ،ويطيب لها أن تسترسل على هيئته مع مألوفاتها فى كل يوم .

والعقاد يتناول فى صفحات هذا الكتاب النظر فى سيرة معاوية من هذه الوجهة ، فليست هى سرد التاريخه ولا سجلا لاعماله ولا معرضا لحوادث عصره ، ولكنها تقدير له وانصاف للحقيقة التاريخية وللحقيقة الإنسانية ـ كما يراها المجتهد فى طلبها وتمحيصها ، ونكاد نقول كما يراها من لا يجتهد فى البعد عنها واخفاء معالمها والتوفيق بينها وبين دخيلة هواه من حيث يريد أو لا يريد . وبعض المؤرخين بعد العصر الاموى إلى زماننا هذا يفعلون ذلك حين ينظرون إلى هذه الفترة فلا تخطئهم

من أسلوبهم ولا من حرصهم على مطاوعة أهوائهم ، كأنهم صنائع الدولة في إبان سلطانها وبين عطاياها المغدقة ونكاياتها المرهوبة ورجالها الذين تعقد بينهم وبين معاصريهم أواصر المودة والنسب وأواصر المشايعة في المطالب والمعاذير .

ولولا أننا نأبى أن نضرب الامثلة بالاسماء لذكرنا من هؤلاء المؤرخين المعاصرين من يتكلم في هذا التاريخ كلاما ينضح بالغرض ويشف عن المحاباة بغير حجة فمنهم من ينكر الخلاف بين هاشم وأمية في الجاهلية ، ومنهم من يحسب من همة معاوية أنه تصدى للخلافة مع على ويحسب من المآخذ على غيره أنهم تصدوا الخلافة مع يزيد ، ومنهم من يشيد بفضل أبي سفيان على العرب لانه كان تاجرا يعرف الكتابة والحساب ويعلمهما من يستخدمهم في تجارته ومنهم من يلوم أهل المدينة لانهم نكبوا في أرواحهم وأعراضهم على أيدى المسلطين عليهم من جند يزيد ولا تكاد تسمع منه لوما لاولئك المسلطين ، بل تكاد تسمعه يعذرهم ولايدرى ما يصنعون غير ما صنعوه .

## عمرو بن العاص

وحين يتناول شخصية محرر مصر عمرو بن العاص فانه يبدأ بنشأته في بطن من البطون القرشية المشهورة وهم « بنوسهم » ويتطرق إلى صفاته الجسدية والنفسية والخلقية ثم يحدثنا عن كيفية إنتقاله من التجارة إلى الامارة بما في ذلك من مفارقات مركزاً على قيمة التجارة في حياة عمرو بن العاص ، فهى مدرسته الكبرى في السياسة والفتوحات

ثم قدم لفتح مصر بمسألة بديهية هى أن الصدام بين العرب والرومان كان قضاء موعودا منذ اللحظة التى نشأت فيها الدعوة الأسلامية ، وكتب لها البقاء مبرراً ذلك بأن الاسلام رسالة تتجه إلى أسماع الناس ، وقلوبهم ، ولان للدولة الرومانية سلطانا قائما يحول بين رسالته والاسماع ويتم فتح مصر على يدى عمرو بن العاص ، ويقدم لنا الاستاذ العقاد فى صورة أدبية رائعة حالة البلاد والسكان وملكها المقوقس ثم الحالة الدينية والإدارية فى ذلك الوقت ويذكر أن الفتح لم يكن مكروها من سكان مصر لأنه نشر الامن والاطمئنان فى البلاد .

وحين نتوقف مع العقاد عند وصفه لدهاء عمرو بن العاص الذى اشتهر به نجده يقدمه بأنه قد أحصى للعرب دهاتهم فى الاسلام فعدوا أربعة هو منهم وجعلوا لكل منهم مزية يمتاز بها فى دهائه فقالوا : إنه معاوية للروية وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات وزياد لكل كبيرة وصغيرة .

ولو تكلم العرب باصطلاح هذه الايام لقالوا : إن حيلة عمرو هى حيلة العبقرية المطاعة التى تتفتق له من حيث يعلم ولا يعلم ، وآياتها أنها عبقرية معبرة تلهم الخاطر السريع وتلهم التعبير عنه فى كلمة وخبر وهذه هى العبقرية التى يختلط أمرها أحيانا على من يراقبونها فيتهمونها بالطياشة ، ويرمونها بدفعة التهور ، لانهم يسلسلون أسبابهم فى بطء وتثاقل وهى تسلسل أسبابها فى سرعة وخفة فيبدو لها ما يظل خافيا عليهم متلبسا فى أعينهم ، ولولا أنها واضحة عند صاحبها كل

الوضوح لما تسنى له التعبير عنها بأسلوب يلائم ومضاتها فى السرعة والنفاذ.

قيل لعمرو . ما العقل ؟ قال : الإصابة بالظن ومعرفة ماسيكون بما قد كان .

والاصح أن يقال إن التعريف بالعقل هنا هو التعريف لعقل عمرو، لأنه كان يجمع بين الفطنة والخبرة ، وبين التخمين واليقين. ويأخذ من أمامه بالنظرة الخاطفة ، فإذا هو قد وصل والذى أمامه لا يزال يتحرى سبيل الوصول .

قيل فى غير الرواية التى قدمناها أنه هو الذى وصف نفسه ، ووصف الدهاة الثلاثة معه على تلك الصفة ، وأنه اجتمع مع معاوية بن أبى سفيان مرة فقال له معاوية : من الناس ؟ فقال : أنا وأنت والمغيرة بن شعبة وزياد قال معاوية : كيف ذلك ؟ قال : أما أنت فللتأنى ، وأما أنا فللبديهة ، وأما المغيرة فللمعضلات ، وأما زياد فللصغير والكبير من الأمور . »

**هذه شخصية عمرو بن العاص كما يقدمها العقاد فى كتابه**

## ثالثاً :: الدراسات والأبحاث

**يلى بعد ذلك من اسلاميات العقاد القسم** الثالث منها وهو الخاص بالدراسات والأبحاث الإسلامية .

والعقاد حين يتحدث عن الإسلام ويكتب فيه يقدمه عن فهم وعقيدة على أنه نظام كامل يحدد الخطوط لإقامة مجتمع كبير متكامل فى مختلف الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وهذه الدراسات والأبحاث الإسلامية يغلب عليها فى كتابات العقاد أمران :

١ – الدفاع عن الإسلام ضد اباطيل خصومه .

٢ – تقديم الصورة الحقيقية للاسلام .

والأمران كما هو واضح وجهان لحقيقة واحدة مؤداها أنه حين يبحث عن الإسلام بمعناه الصحيح فإنه يدافع ضمنيا عن الإسلام .

والحق أن أصول هذا المنهج مستمدة من تعاليم الشيخ محمد عبده. فقد مضى العقاد فى أثره يؤمن فى عمق بأن الإسلام دين عالمى صالح لكل الشعوب إذ قرر للانسانية مبادىء لا يمكن صلاحها بغيرها مفوضا للعقل الإنسانى أن يختار ما يلائمه مما يتمشى مع الأطوار الاجتماعية التى تتغير وتتبدل من بلد إلى بلد ، ومن عصر إلى عصر ، ومن مدينة إلى مدينة ، فتلعب النظرية دورا كبيرا فى كل ما كتب العقاد من دراسات وأبحاث إسلامية. وقد عبر العقاد عن ذلك صراحة فى تقديمه لكتاب «الفلسفة القرآنية» حيث يقول : موضوع هذا الكتاب هو صلاح العقيدة الإسلامية لحياة الجماعات البشرية ، ووفقا لهذا المنهج نرى العقاد يقدم لنا دراساته وأبحاثه .

ونظرية ثانية يبثها الشيخ محمد عبده فى تعاليمه هى أن الإسلام يفرض على الناس التفكير وأن يحتكموا دائما إلى العقل وهو نفسه احتكم إليه فى إثبات عقائده وتعاليمه الأساسية ، وقد دعا الشيخ الامام دعوة واسعة إلى الانتفاع به فى العلم وجميع شئون الحياة والعقاد يصدر بهذه النظرية كتبه وقد أفرد لشرحها كتابه «التفكير فريضة إسلامية» وهو يستهله بأن من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة هى التنويه بالعقل والتعويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف ، ويقول أنه لا يذكر العقل

إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه وقد خاطبه بكل صوره المدركة للتصورات الإنشائية والوازعة عن المحظورات والمنكرات والاستدلالات المستخرجة للأحكام والراشدة المستبصرة. وبذلك يعم الخطاب فى القرآن العقل بكل صوره وخصائصه ووظائفه. ولا يذكره عرضا مقتضبا بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الأديان.

ولعناية الإسلام بالعقل بقية فى نظرية الشيخ محمد عبده يلتقى فيها بالمعتزلة ومؤداها أن الإسلام يدعو إلى حرية الإرادة الإنسانية يختار بمشيئته عمله. وبهذه النظرية المستمدة من الشيخ محمد عبده أصداء كثيرة فى كتابات العقاد الدينية وخاصة فى كتابه «الإنسان فى القرآن» من حيث يقرر أن الله أعطى الناس حظوظا من الحرية والإرادة وبدونهما لا يكون تكليف ولا مسئولية. وعلى هذا النحو يمكن أن يرد كثير من أفكاره الدينية إلى مصادرها الأولى عند الشيخ الإمام محمد عبده.

ومعروف أن الشيخ الامام محمد عبده عنى طويلا بالرد على خصوم الاسلام على نحو هو معروف فى كتابه «الإسلام والنصرانية» وعلى ضوء هذه العناية الف العقاد كتابيه «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» و«ما يقال عن الإسلام» وقد حاول كثيرا أن يدلل عل أن الاسلام وضع للانسانية صورة رائعة من الاصلاح الاجتماعى، وهو دائم الحديث عن ذلك فى كتبه السابقة وأيضا فإنه — أى الاسلام — كفل للناس حريتهم السياسية بما شرح لهم من نظام ديمقراطى سليم وسترى ذلك فى كتابه «الديمقراطية فى الاسلام» وقد عنى العقاد فى كتابه «مطلع النور»

ببيان أن الرسالة المحمدية مهدت لحدوث مقدمات هيأت لها بحيث غيرت من لوازم الانسانية وحاجتها ودواعيها . وسوف نراه فى « الاسلام والقرن العشرين » يتحدث عن قوة الاسلام الغالبة الصامدة على التاريخ كما تحدث عن الدعوات التى انبعثت فيه منذ القرن التاسع عشر وأطوارها مع نهضات الاصلاح وهو دائما إذا تحدث عن مستقبل الاسلام ملأته الثقة والأمل .

يضاف الى تأثير الامام الشيخ محمد عبده فى العقاد ... امكانية العقاد نفسه على الدفاع والاقناع والرد والحجة وهى أمور عرف بها العقاد وجعلته ناجحا فى دفاعه عن الاسلام . . ولعل هذا النجاح مرجعه سعة اطلاعه ، ولحولة منطقه ، ونفاذ بصيرته الى حقائق الأشياء التى خلقها الله ، وتأهبه لكل قضية بما يناسبها من عتاد .

وبهذا المنهج قدم العقاد دراساته وهى : « **الله** » و « **مطلع النور** » و « حقائق الاسلام » و « ما يقال عن الاسلام » « و التفكير فريضة إسلامية » و « الشيوعية والإنسانية فى شريعة الاسلام » و « الديمقراطية فى الإسلام » والفلسفة القرآنية » والانسان فى القرآن » و « المرأة فى القرآن » و » الاسلام فى القرن العشرين » فماذا تقول هذه الكتابات ؟

**الله :**

موضوع هذا الكتاب هو نشأة العقيدة الالهية ، منذ إتخذ الإنسان الهـا إلى أن عرف الله الواحد الأحـد واهتدى إلى نزاهة التوحيد .

وقد بدأه العقاد فى الأقوام البدائية ثم لخص عقائد الأقوام التى تقدمت فى عصور الحضارة ثم عقائد المؤمنين بالكتب السماوية ، وشفع هنا ذلك بمذاهب الفلاسفة الأسبقين ، ومذاهب الفلاسفة التابعين .

ولقد كانت عناية العقاد فى كتابه هذا عناية بالعقيدة الإلهية دون غيرها . فلم يقصد فيه إلى تفصيل شعائر الأديان ولا تقسيم أصول العبادات ، لأن الموضوع على حصره فى نطاقه هذا أوسع من أن يستقصى كل الاستقصاء فى كتاب .

إن موضوعا كهذا الموضوع المحيط لعرضه للتشعب والتطويل كيفما تناوله الكاتب ومن أى جانب تحراه فلا بد فيه من إيجاز ، ولا بد فيه من اكتفاء .

والحق أن العقاد تحرى الايجاز ، وتحرى معه أن يغنيه فيما قصد وذاك هو الالمام بأطوار العقيدة الالهية على وجهتها فى التوحيد . وأن تكون هذه الأطوار مفهومة العلل والمقدمات .

وختم العقاد هذا المبحث الهام بفصلين أما الأول فكان عن مذاهب الفلسفة العصرية فيقول : كان الأقدمون يقولون بالاله « المقيد » لأنهم يؤمنون بتعدد الآلهة أو بوجود إلهين إثنين يتناظران ويتغالبان، وهما اله الخير واله الشر ، أو اله النور واله الظلام .

ولما شاع الإيمان بالتوحيد بطل القول بالاله « المقيد » لأن الاله الواحد لا يحده شيء ولا تحيط به القيود والنهايات ، وكل ما قبلته العقول النفسية فى حقه أن قدرته جل وعلا لا تتعلق بالمستحيل ولم يقبل

بعض المتكلمين حتى هـذا القول . . لأنهم رأوا أن الاستحالة نوع من التقييد الذى تتنزه عنه قدرة الله .

ثم عرف الناس أن الأرض كرة سـيارة تدور فى الفضاء كما يدور غيرها من السيارات . . وعرفوا مذاهب النشوء والتطور . فقال لهم دعاته أن الانسان حى كسائر الأحياء التى نشأت على الأرض وتحولت بها أحوال البيئة من طور إلى طور ومن طبقة إلى طبقة فى مراتب المخلوقات .

فتواتر القول بما كان لهذين الكشفين من الأثر الخطير فى نظرة الانسان إلى الكون ونظراته إلى نفسه ونظراته إلى حقيقة الحياة .

كان يحسب أن الأرض مركز الوجود وأنه هو مركز الأرض أو غاية الخلق كله فى الأرضين والسماوات، وكان يحسب أنه شىء علوى تسخر له الأحياء ، ولا يحسب أنه فرع من فروع الشجرة التى نبتت منها سائر الفروع فتتغير نظره إلى الكون ونظره إلى نفسه ولكن فهل تغير نظره إلى الله ؟

ربما تزعزع الإيمان بالله بعد هذه الفلسفات العصرية . . التى تؤمن بوجود الله ولكنها تقيده بقوانينه أو تقيده بنواميس المادة والقوة .

هذا السؤال وغيره من الأسئلة التى تدور حول الله والإيمان به فى العصور الحديثة التى غلبت فيها المادة على الروح تجيب صفحات الكتاب عليه .

**الشيوعية والانسانية فى شريعة الاسلام**

ما هى حقيقة الشيوعية ومن هو صاحبها ومن هم أتباعه ؟ وما هى

حقوق الفرد ومكانه . الأخلاق والدين والآداب والفنون والمعارف والعلوم في خلال هذا المذهب التي قامت عليها الشيوعية ونادى بها أعضاؤها والمروجون لها ؟

العقاد يرسم لنا صورة صادقة — مدعمة بالشواهد والأدلة والبراهين — تنطبق بتداعى هذا المذهب وفساده ، وبأنه وليد النقمة والرغبة فى اشباع شهوة الحقد والحسد والكراهية .

والعقاد لكى يصل إلى رأيه هذا قطع رحلة مع الكتب التى كتبت عن الشيوعية سواء لها أو عليها ، الكتابات الشيوعية نفسها وتراجم لزعامتها وفى مقدمتهم ماركس .

وشرع يكتب ممهدا لكارل ماركس كشخصية لها تأثيرها العقائدى . ثم درس شخصية كارل ماركس نفسها من جوانبها النفسية والاجتماعية والثقافية والسياسية على اعتبار أن دراسته لزعيم هذا المذهب ومنشئه على حد قوله يجعل من السهل دراسة المذهب ورجاله .

بعد أن يدرس صاحب المذهب كارل ماركس على حد تعبيره ينتقل إلى أتباعه ثم بواعث الشكاية فى الشيوعية الى أن يصل الى عرض المذهب الشيوعى نفسه ، ومن بعـــده يعرض المادية وعلاقتها بالمذهب الشيوعى .

ينتقل بعد ذلك الى القسم الثانى من كتابه الشيوعية والانسانية فى شريعة الاسلام حيث يخصصه عن الطبقات وعلاقتها بالشيوعية فيتحدث

أولا عن الطبقات والانتاج ، ثم عن القيمة الفائضة ثم عن حقوق الفرد فى المجتمع وواجباته .

بعد هذا يصل الى القسم الثالث وهو يعتنى بالشيوعية وعلاقتها بكل من الأخلاق والآداب والفنون والمعارف والعلوم وهل كان لهذه العلاقة من فوائد علمية .

حتى يصل ببحثه الى القسم الأخير وهو الشيوعية والاسلام ويبين كيف أن ماركس قد قرأ عن الاسلام أثناء قراءته لعلم الانسان . غير أن العقاد يرى أن ماركس لم يقرأ تعاليم الاسلام وحلوله لبعض مشكلاته الاجتماعية قراءة دقيقة . فقد كان يبدو متعجلا فيما وصل اليه من نتائج وأفكار .

ثم يتحدث بعد ذلك عن حاجز الشيوعية فى منتصف القرن العشرين فيتجه لقرن كامل منذ منتصف القرن التاسع عشر ، مضى أكثره فى الدعاية والجدل ، ومضت البقية منه فى التطبيق أو فى محاولة التطبيق بعد الحرب العالمية الأولى .

وقد اتيحت لدعاة المذهب خلال هذا الجيل فرصة لم تكن متاحة قط لمذهب اجتماعى أو عقيدة دينية لأنهم ملكوا أزمة الحكم بين مائتى مليون من الناس واجتاحوا كل عقبة قائمة أو تخيلوا أنها قائمة دون غايتهم ولو كلفتهم ما لا يستباح .

هـــذه الجوانب جاءت فى كتاب العقاد عن الشيوعية فى شريعة الاسلام .

**المرأة فى القرآن**

**تقول مذكرة كتاب المرأة فى القرآن للعقاد أن الصفة العامة التى وصفت بها المرأة فى القرآن الكريم هى الصفة التى خلقت عليها ، أو هى صفتها على طبيعتها التى تحيا بها مع نفسها ، ومع ذويها والحقوق والواجبات التى قررها كتاب الاسلام للمرأة قد أصلحت أخطاء العصور الغابرة فى كل أمة من أمم الحضارات القديمة ، واكسبت المرأة منزلة لم تكسبها قط من حضارة سابقة ولم تأت بعد ظهور الاسلام حضارة تغنى عنها ، بل جاءت آداب الحضارة المستحدثة على نقص ملموس فى أحكامها ووصاياها ، لأنها أخرجت من حسابها حالات لا تهمل ، ولا يذكر إشكالاتها حل أفضل من حلها فى القرآن الكريم اذا انتقل بها البحث من الأهوال إلى الدراسة والتدبير .**

وقد حدد القرآن فى معاملته للمرأة آثارها الإنسانية التى تقوم على العدل والإحسان لأنها تقوم على تقدير القوة والضعف أو تقدير الاستطاعة والإكراه .

ويمكن تفصيل هذا الإيجاز فالعقاد بدأ كتابه بموضوع حول ما للرجال على النساء من درجة الأمر الذى جاء به القرآن وشرعته السنة ، وأكده الفقهاء .

وعن الكيد عند النساء يفرد العقاد فصلا حيث يقول جاء وصف النساء بالكيد فى ثلاثة مواضع فى القرآن مرتين على لسان يوسف ومرة على لسان العزيز .

والأخلاق الاجتماعية كان لها رصيد من الاهتمام فى الفصل الرابع.. حيث يقرر أن حكمة القرآن الكريم تتجلى فى النص على قوامة الرجال من أحوال المجتمع كما تتجلى من أحوال الأسرة وأحوال الصلة

الزوجية بين الذكر والأنثى أى بين الرجل والمرأة فى نوع الإنسان .

وعن مكانة المرأة فى الإسلام يذكر العقاد بأن الإسلام جاء بحقوق مشروعة للمرأة لم يسبق لها مثيل . وأكرم من ذلك أن الإسلام رفع المرأة من المهانة إلى مكانة الإنسان المعدود من ذرية آدم وحواء ، وبرأها من رجس الشيطان وحطة الحيوان .

والحجاب الذى تطالب به الأفكار الجديدة الآن . طالب به الإسلام . فلا حجاب فيه بمعنى الحبس والحجر والمهانة ، ولا عائق فيه لحرية المرأة حيث تجب الحرية وتقضى المصلحة وإنما هو الحجاب مانع الغواية والتبرج والفضول وحافظ الحرمات وآداب العفة والحياء .

وقد حدد الإسلام حقوق المرأة فى كل جوانب الحياة وفضل لها الأعمال التى تجوز لها فى المجتمع .

وعندما تحدث العقاد فى كتابه هذا ، وموقف القرآن من زواج المرأة . أتبع هذا الفصل بآخر عن زواج النبى صلى الله عليه وسلم كمثل وشريعة وبالطبع تحدث فيه عن تعدد الزوجات .

والإسلام يرى أن الطلاق حلال ولكنه أبغض الحلال عند الله هكذا يقول العقاد فى كتابه . ثم يحدد متى تكون المرأة طالقا ومتى لا تكون.

وبعد أن حدثنا عن السرارى والإماء يفرد جزءاً عن مشكلات البيت وكيف يكون البيت مكاناً لإسعاد الزوجين والأبناء .

**الديمقراطية فى الاسلام :**

**يوضح العقاد فى كتابه هذا فكرة الديمقراطية كما انشأها الاسلام لاول مرة فى تاريخ العالم .وقد دعاه الى هذا البحث ان الأمم الاسلامية فى هذا العصر تنهض وتتقدم وانها احوج ماتكون فى هذه المرحلة خاصة الى الحرية والايمان متوافقين . لان الحرية بغير ايمان حركة آلية حيوانية اقرب الى الفوضى والهياج منها الى الجهد الصالح والعمل المسدد الى غايته فمن الخير ان تذكر الأمم الاسلامية على الدوام ان الحرية عندها ايمان صادق وليست غاية الأمر فيها انها مصلحة ونظام مستعار .**

ولمن شاء أن يقرأها من الوجهة الدينية فسيراها مطابقة للعقيدة الدينية الحسنى فى غير شطط ولا جمود .

ولمن شاء أن يقرأها من الجهة العلمية فسيرى أن الموضوع كله صالح للعرض على مقاييس العلم وموازينه ، ولكن على شرط أن يفهم أولا ما هى المسألة التى تعرض على العلم حين نتكلم عن الديمقراطية فى الإسلام .

ويتساءل العقاد .

هل هى شعائر العقيدة وعباراتها ومدلولاتها فى العقل وفى الضمير ؟

— هل هى اعتقاد كما استقر فى فطرة الإنسان ؟

— هل هى الأمم التى دانت بتلك العقيدة مئات السنين وصدرت عنها فى تقدير الأخلاق والعادات وتقرير المباح والمحظور ؟

هل هى الأعمال الجسام التى تمت بباعث تلك العقيدة ولولاها لما تمت على هذا الوجه أو لما تمت على وجه من الوجوه ؟

ـــ هل هى أسلوب الوجدان فى قصور الحقائق الدينية والشعور بالغيب المكنون وراء ظواهر هذا الوجود ؟

ـــ وهنالك جانب « سلبي » يقابل هذا الجانب « الإيجابى » ولابد من السؤال عنه كما يسأل عن هذه الأمور .

فإذا عرضنا لتقدير الحياة الدينية فى أمة من الأمم هل تستغنى عن النظر إلى الإنسان المجرد من الاعتقاد الذى خلا وجدانه من الإيمان ؟

ـــ وهل نستطيع أن نفقد من تقديرنا أنه إنسان غير طبيعى فى قلقه وارتيابه وسوء ظنه بوجوده ، وأن اجتماع ملايين من أمثال هذا الإنسان فى أمة واحدة يخلق لنا أمة غير طبيعية فى خللها وفوضاها ونقص البواعث التى تمسك بعضها إلى بعض وتربط كلا منها برباط القانون والحق وصوالح العادات ؟ وما هى الظاهرة العلمية التى يقررها العالم إذا قاس الأمور كلها بهذا القياس ووزن الأحداث التاريخية والأطوار الإنسانية كلها بهذا الميزان ؟

ـــ هنا حقيقة شاملة لا انفكاك لجزء من أجزائها فى سائرها حقيقة حية تنتظم فى أطوائها مئات الملايين من البشر فى عشرات المئات من السنين . وتدخل فيها بواعث الأخلاق والاجتماع والنهوض والتقدم بين أولئك الملايين فى ذلك الزمان فأى عنصر من هذه العناصر يحمله العالم إلى معمله لتحليله وتعليله ؟ وكيف يحللها صلة ويحللها جملة ، ويخرج معها جاهلا بالقوة الشاملة فى هذه الحقيقة الحقة ؟ وكيف يستطيع أن يزيفها وليس فى جواهر الحقائق العيانية ـــ ما هو أثبت منها وأعصى على التزييف ؟

والكتاب يذهب إلى أن طريقة الوجدان فى تحصيل الحقائق تثبت تلك الحقائق ولا تبطلها وإننا لو تأملنا حقائق الحس نفسه لوجدنا لها أسلوبا يخالف تعبير العلماء فى الوصف والتعليل فنحن نسمع كلمات لها وقع فى النفس والعلم لا يعرف من هذه الكلمات إلا أمواج الهواء أو الفضاء، ونحن نذكر اللون الأحمر واللون الأزرق واللون الأخضر وغيرها من الألوان الخالصة أو الممزوجة، والعلم لا يعرف منها إلا ذبذبة شعاع، ثم لا يعرف ماهى هذه الذبذبة وأين يكون مجراها من الأثير أو الفضاء على التحقيق.

وبهذه النظرة العلمية يتلاقى رجل العلم ورجل الدين ويستطيع الباحث فى الديمقراطية الإسلامية أن يحسب حسابها بضميره وعقله وألا يعدو الواقع حين يضع يديه على الأسباب ونتائجها فيقول إن شاء هذا هو العيان ويقول إن شاء هذا هو الوجدان.

ويقدم معنى الديمقراطية عامة.

والديمقراطية فى الأديان الكتابية.

ثم الديمقراطية العربية.

والحكومات والإمامة والديمقراطية السياسية والديمقراطية الاقتصادية والأخرى الاجتماعية والأخلاق الديمقراطية ثم التشريع والقضاء.

**الاسلام فى القرن العشرين :**

**فى هذا الكتاب نجد العقاد متفائل شديد التفاؤل بمستقبل الاسلام فى القرن العشرين ولعل تفاؤله هذا مبنى على ما كان من امجاد ماضيه البعيد ذلك الماضى المزهر حين امتد الاسلام من حدود الصين شرقا الى حدود افريقيا الغربية غربا ومن بحر قزوين شمالا الى السودان جنوبا ولكن العقاد رغم تفاؤله هذا يشترط شرطا واحداً لكى يظل الاسلام على امجاده هذه والشرط هو ان يبقى العلم والبصيرة والفكر فى الاسلام - مستقبلا - ذلك المكان الذى كان له ابان نهضته. فاذا بقى للاسلام هذا الشرط فى راس العقاد فلا خوف عليه من اقوياء اليوم او الغد.**

والعقاد فى كتابه هذا يمزج النصيحه بالأمل ونحس بأن مايقوله من آراء لايمكن أن تصدر عن شخص مزعزع العقيدة إذ يقول :

إنما نحن آمنون إذا واجهنا الغد المجهول بعدته ، وإنما نحن مستعدون لخير ماتستطيع إذا خرجنا من الماضى الطويل بعدته الوافية . وعبرته الوافية أن العقائد أثبت من السياسات وأن الدول أثبت من الأمم ،وأن الجاهل أعدى لأمته من أعدى أعدائها وما نكب الاسلام قط من حرب صليبية أو من حرب استعمارية كما نكب من أبنائه الجهلاء .

أرأيت تشخيصاً للداء ووصفا للدواء أبلغ من هذا الذى يسوقه علينا العقاد .فالعقائد فى نظره أثبت من السياسات لأن هذه السياسات متغيرة حسب الأشخاص والأزمان ،هذا من ناحية . وأن من الداعداء الأمة هم الجهلاء..لقد أزدهر الاسلام وتقدم وكانت له الحضارة بالعلم ووصل الاسلام بهذا العلم حتى دخل أوربا فعلمها . كل هذا كان بالعلم ، ويوم نكب الاسلام بالجهل سلطت عليه طغيان الدول واستعمارها .

وهل هذا الكلام يصدر إلا عن عقيدة مكينة وإيمان كامل بمستقبل الاسلام ؟ إن العقاد يسترسل فى حديثه عن الاسلام فيقول : « وإذا بقى للإسلام إيمانه والمؤمنون به على هدى وبصيرة فلا خطر عليه من أقوياء اليوم ولا من أقوياء الغد المجهول من كل خطر أن يتخلف مكان العلم والبصيرة ويتقدم مكان الجهل والغباء هذه عقيدة ساقها فى كتابه هذا .

وفى الكتاب يحدثنا العقاد عن معنى القوة الغالبة الصامدة وينتقل فى حديثه الى معنى الشمول وشمول العقيدة بوجه خاص ولعل كل هذا تقديم لما يريد قوله بعد ذلك عن الاسلام اولا فى القرن التاسع عشر والمسلمين ووصفهم فى هذا العالم الذى اصبح فيه اقوياء وضعفاء الم يقتصر مثلا على دولتين كبيرتين هما فارس وبيزنطة تلك التى نشأ الاسلام فى وجودهما فى القرن السادس الميلادى وقد تحدث بشىء من التفصيل عن الاسلام فى ايران فى مراكش فى الهند فى الصين فى افريقية الشمالية والحبشة وغيرها من البلدان تلك التى تواجه حرباً ضروية من التبشير .

ثم ينتقل إلى الحديث من محاولات الاصلاح والنهضات التى كانت فى هذه الفترة بالذات . ويحدثنا عن المصلحين فى مقدمتهم أحمد خان وجمال الدين الافغانى ومحمد عبده والمهديون .

وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الدعوات والنهضات فى القرن العشرين وليس فى القرن التاسع عشر مثلا .

الفلسفة القرآنية :

في كتابه « هذا » يوضح العقاد المقصود بالفلسفة القرآنية وهي التي تغني الجماعة الاسلامية في باب الاعتقاد ولا تصدها عن سبيل المعرفة والتقدم. بعد هذا نراه يضيق بما يذهب اليه بعض الكتاب الاسلاميين الذين تبهرهم الكشوف العلمية الحديثة فيسرعان مايربطون بينها وبين الدين ويقدمون آراءهم على انها فتوح جديدة في العلم والدين والعقاد يضع حكما دقيقا في هذه المسألة خلاصته أن معظم النظريات العلمية المتعلقة بخلق الكون او مظاهر هذا الخلق لا تزال مجرد فروض ولا ينبغي أن نربط بين الدين وبين نظرية علمية قد تبدو اليوم باهرة الابصار ثم لا تلبث ان تنقضي غدا واحترام العقاد للدين جعله يعبر عن هذا الموقف وهو أنه لا ينبغي ان نخضع العلم للدين لأن الدين يحض على العلم الى ابعد مدى ويدعونا الى البحث عن الحقيقة حتى نهتدي اليه بجهودنا .

وخلاصة كتاب الفلسفة القرآنية انه ليس للعلماء ولا للفلاسفة ان يطلبوا من الدين غير هذا .

وانه مهما يكن من رأيهم في الايمان بالله ، فهم لايجهلون ولايستطيعون ان يجهلوا ان الايمان ـ كما قدمنا ـ ضرورة كونية ، لاتخلقها مشيئة احد من الآحاد ، ولو كان في قدرة الرسل والانبياء .

فإذا أجمع الناس على الاعتقاد كيفما كان اختلافهم في الجنس ، والوطن ، والمصلحة ـ فليس هذا عمل فرد ، ولا هو مما يقع بين الحين والحين عرضاً واتفاقاً من فعل الحيلة والتدبير ، ولكنه باعث من صميم قوى الكون ، لايفلح الرسل والأنبياء في نشر دعوته مالم يكن في تلك الدعوة مطابقة لحكمة الخلق وسر التكوين .

وكل اعتراض يعترض به المنكرون على حقائق الأديان لايقام له

وزن ، فى مواجهة هذه الظاهرة الواقعة التى لاشك فيها . .

بل هو لاينفى الوحى الالهى كما تخيلوه ، أو كما يمكن أن يتخيلوه ولا يبطل ضرورة الاعتقاد بين الجماعات البشرية بحال من الأحوال .

إنهم يتخذون من عقائد بعض العامة ، أو عقائد بعض الخاصة دليلا على انها أمور لا تصدر من عند الله . الذى يصنعه أصحاب الأديان بالعلم والحكمة والقدرة على هداية العقول إلى الصواب فى الكبير والصغير .

فإذا كان هذا هو المبطل للوحى الالهى ، فكيف يثبت الوحى الالهى فى قياس أولئك الفلاسفة أو العلماء ؟ .

ايثبت بعقيدة يدين بها العامة كما يدين بها الخاصة ،وتطابق الدروس العلمية اليوم ، كما تطابقها عندما تنقض نفسها بكشف جديد ؟ ,

ايثبت بعقيدة تدخل العمل الصناعى - أو العملى - كل سنة أو كل بضع سنوات للفحص والامتحان ؟ .

ايثبت بعقيدة ليست بعقيدة ، ولكنها مجموعة من الأزياء الرسمية التى يغيرها الإنسان تارة بعد تارة ، ولا يمزجها ببواطن الضمير ؟ .

كلا . . فإن الوحى الإلهى - متى يثبت - لا يثبت على النحو الذى تخيلوه بل على النحو الذى عهدنا عليه الأديان ، مع اختلاف العقول اختلاف الأجيال واختلاف المعلومات .

عقيدة هى عقيدة ، وإيمان هو إيمان . . وبعدذلك موافقة لدواعى الحياة ومطالب الفكر وخلجات الشعور وهكذا تصح العقيدة ، إن

صحت على الاطلاق ، وهكذا يكون الايمان ، أن كان إيمان .

والعقاد رأى أناسا يبطلون الأديان فى العصر الحديث باسم الفلسفة المادية. فإذا بهم يستعيرون من الدين كل خاصة من خواصه ، وكل لازمة من لوازمه ، ولا يستثنون عما فيه من عناصر الايمان والاعتقاد ، التى لا سند لها غير مجرد التصديق والشعور ، ثم يجردونه من قوته التى يبثها فى أعماق النفس ، لأنهم اصطنعوه اصطناعا ، ولم يرجعوا به إلى مصدره الأصيل .

فالمؤمنون بهذه الفلسفة المادية ، يطلبون من شيعتهم أن يكفروا بكل شيء غير المادة وأن يعتقدوا أن الاكوان تنشأ من هذه المادة فى دورات مسلسلة ، تفل كل دورة منها فى نهايتها لتعود إلى التركيب فى دورة جديدة ، وهكذا دواليك ، ثم دواليك إلى غير انتهاء .

ويطلبون منهم أن ينتظروا النعيم المقيم ، على هذه الأرض ، متى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات الاجتماعية . . فإن زالت الطبقات الاجتماعية فى هذه السنة أو بعدها ببضع سنوات فتلك بداية الفردوس الأبدى ، الذى يدوم ما دامت الأرض والسموات وتنتهى إليه أطوار التاريخ ، كما تنتهى بيوم القيامة فى عقيدة المؤمنين بالاديان . .

ولا يكلف دين من الأديان اتباعه تصديقا أغرب من هذا التصديق ولا تسليما أتم من هذا التسليم . .

ولا يخلو دين الفلسفة المادية من شيطانه ، وهو « الرأسمالية » الخبيثة العسراء . . فكل ما فى الدنيا من عمل سوء ، أو فكرة سوء ، فهو كيد من الشيطان المريد . .

ولما طبقت هذه العقيدة فى بعض البلاد على أيدى أصحاب الفلسفة المادية ـ خيل إليهم أنهم ظفروا بحقيقة الحقائق واستغنوا بها عن كل ما اعتقده الإنسان فى جميع الأزمان ، ولاسيما عقائد الأديان والأوطان.

وادخروها للزمن كله ، بل للأبد كله . . ولكنهم لم يكادوا يصطدمون صدمتهم الأولى فى الحرب العالمية الأخيرة حتى أفلست « عقيدة الأبد » كل الافلاس ولجأوا إلى الوطن يستعيدون مثله وإلى الديانة يستجدونها ويتمسحون بها . فنادوا « بالجهاد القومى » ورحبوا بالصلوات فى المعابد وشجعوا المصلين على ارتيادها وأجتمع رؤساء القساوسة فى حضرة زعماء المذهب الشيوعى ليعلنوا العودة لمجلس الكنيسة إلى نظامه القديم . .

وفحوى هذه العبرة البالغة أن أسرار العقيدة أعمق وأصدق مما يدور بأوهام منكريها ، وأنها ذخيرة من القوة وحوافز الحياة تمد الجماعات البشرية بزاد صالح لا تستمده من غيرها ، وأن هذه الذخيرة « الضرورية » خلقت لتعمل عملا ولم تخلق ليعبث بها العابثون ، كلما طاف بأحدهم طائف من الوهم أو طارت برأسه نزعة عارضة ، لا تثبت على أمتحان.

هكذا يحدثنا العقاد فى كتابه الفلسفة القرآنية عن القرآن وكيف نظر إلى الأخلاق ، والحكومة والطبقات والمادة والمرأة والزواج والميراث والاسر والرق والعلاقات الدولية والعقوبات ومسألة الروح والقدر والعلاقات الدولية والعقوبات والفرائض والعبادات والتصوف والحياة الأخرى والإصلاح .

**ما يقال عن الاسلام :**

يعرض هذا الكتاب لأشتات من الكتب الحديثة التي يؤلفها الغربيون عن الإسلام . ويلاحظ العقاد فى هذه الكتب اختلافاً بين حسن النية وسوئها .

وأهم مايهم فى هذه الأشتات المتفرقة بين مؤلفات الأجانب هو محل الاخلاص فيها وفى كتابتها فمن هم المخلصون منهم ؟ ولماذا يخلصون ؟

والجواب على هذا السؤال يحدده العقاد بقوله: كل ما اطلعت عليه من مؤلفاتهم المتلاحقة فى العصر الحاضر يدل على أن المخلصين منهم فريقان طلاب المعرفة ، وطلاب العقيدة ، وقد تجمعهما فئة واحدة يقال عنهم جميعا انهم طلاب الحقيقة فى عالم العلم وفى عالم الضمير .

إن العلماء المتجردين للبحث العلمى عندهم يتحررون من الأهواء النفسية التى تحول بين الباحث وتقرير مايراه كما رآه . ومنهم من يقرر مذهبا له فلا يفرق بين المشاهدات التى تنقضه أو تشكك فيه أو تذره معلقا بين النقض والتأييد فينتهى إلى ترجيح مذهبه ثم يتبع الترجيح بقوله إن المذهب حتى الآن ثابت لولا مايرد عليه من هذه المشاهدة أو تلك فى جملة المشاهدات .

وليس بهؤلاء من خفاء فيما يكتبون لأنه ينم على مقاصد أصحابه بعد مراجعة يسيرة ، ومنهم من عرفوا بالأمانة العلمية فيما كتبوه عن سائر المطالب العلمية غير الاسلام .

أما طلاب العقيدة فهؤلاء هم زمرة من الباحثين داخلهم الشك فى عقائدهم التى ولدوا عليها وغلب عليهم الإيمان بأن الشرق هو مصدر

الأديان وأن الباحثين عن العقائد الروحية مرجعهم إليه فى الزمن الحديث كما كانوا يرجعون إليه فى الزمن القديم .

والعقاد يرى أن أخطر المغرضين فى الكتابات الاسلامية طائفتان تملكان من وسائل الدعاية ماليس لطائفة أخرى من طوائف المغرضين وهما طائفة الصهيونية وطائفة الاستعمار .

والحق أن النتيجة التى نستخرج منها ميزانا لما ينشره الغربيون عن الاسلام والمسلمين فى عصرنا — هى تمييز المخلصين منهم وغير المخلصين وحصر البواعث التى تدفع غير المخلصين إلى الجهل بالحقيقة وإخفائها إذا عرفوها .

فالمخلصون منهم هم طلاب العلم وطلاب العقيدة وغير المخلصين هم المتعصبون للوطنية الغربية والمتعصبون للدعوة المادية — كما يقرر العقاد — والمتعصبون للدين عن ايمان أو عن غش واحتراف وطلاب الغرائب ودعاة الصهيونية والاستعمار .

ثم يبدأ بعرض هذه الكتب التى تتناول الاسلام بالدراسة وهى مغرضة وأولى هذه الكتب كتاب الاسلام والعصر الحديث لمؤلفته الدكتورة « الس ليختنستادر » وغيره من الكتب والأقاويل التى وقعت تحت عينى العقاد وأراد أن يعرضها أولا ثم يناقشها ليفند ما تقوله من مزاعم وأفكار خبيثة وقد إجتمع لديه أكثر من خمسين كتابا كبيرا ، تناولت بالكتابة الاسلام والأمم الاسلامية . لأن الاسلام دين ونظام إجتماعى .. وله بهاتين الصفتين علاقة بما ينتشر

اليوم من المذاهب العامة فى شئون السياسة والاجتماع .

وقد استطاع العقاد إلى جانب عرضه لهذه الكتب أن يفند ما فيها من أباطيل وإفتراءات . . ويرد عليها .

**الانسان فى القرآن الكريم :**

يتساءل العقاد . ما مكان الانسان من الكون كله ؟ . . ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هذا النوع الواحد ، أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان الانسان ؟ .

وهى أسئلة لا جواب لها فى غير ( عقيدة دينية ) تجمع للإنسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة ايمانه بغيبها المجهول .. تجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة ! . . حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان . .

ويذهب العقاد إلى أن هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغى أن توجد ، وإنما الضلالة فيمن يريدها على غير سوائها الذى تستقيم عليه، ولا تستقيم على سواه .

وهذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتبدأ غدا ، ولا توجد على الايام للعارفين دون الجاهلين ، وللعاملين دون الخاملين ولمن يسعون سعيهم إلى العلم والايمان دون من يقعدون فى مواطنهم منتظرين ، وقد يقعدون وهم يجهلون أنهم قاعدون لايعلمون ما الخبر وما المنتظر ؟ إن علموا أنهم منتظرون .

هذه العقيدة بنية حيه ، قوامها دهور وأعوام ، ومعايش وآمال ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق . . ونفوس يخلق لها تراثها قبل أن يصير إليها ، وسبيلها جميعا أن تهتدى إلى قبلة واحدة تنظر إليها فتمضى قدما ، أو تفقدها فى الأفق فهى اشلاء ممزقة كأنها اشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطرق .

إن القرن العشرين ، منذ مطلعه ، يعرض العقيدة بعد العقيدة على الانسان وعلى الانسانية ، ولكنه لم يعرض حتى اليوم قديما معادا جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن . وأوفق ما فيها أنها غنيت عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها فى كل معترك زبون ، يوم خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس .

والعقاد يقول ونحن ندعى فى هذه الصفحات أن المصنف بين النصائح لايستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الانسان والانسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التى يستوحونها من كتابهم، وأن القرن العشرين سينتهى بما استحدث من مبادىء ومذاهب و « أيديولوجيات » ولا ينتهى ما تعلمه أهل القرآن من القرآن . .

وأن أهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون أحسنه إذا تدبروا ، فلم يأخذوا بعقيدة من هذه العقائد التى يروجها دعاتها باسم المادية أو الفاشية أو العقلية ، ويريدون بها أن تكون على الزمن بديلا

من العقائد الالهية » ومن عقائد الغيب الذى يحسبونه معدوما أو موجودا كمعدوم .

ثم يعرض العقاد لبعض المذاهب والعقائد التى مرت بالناس حين استمعوا إلى المادية التاريخية فقالت لهم أن الانسان عملة « اقتصادية » فى سوق الصناعة والتجارة ، تعلو وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . أما الانسانية فقد أنصتت إلى المادية التاريخية ، فقالت لها أنها شىء لا وجود له مع طوائفها التى تخلقها الأسعار والأجور . . . »

وحين استمع الناس الى الفاشية فقالت لهم إن الانسان واحد من عنصر السيد أو عنصر مسود وأن أبناء الانسانية جميعا عبيد للعنصر السيد والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار ، بغير إختيار .

وحين استمع الناس إلى « العقلية » فقال لهم قائل منها أن « انسانيتهم » شىء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان . وأن الشىء الموجود هنا هو الفرد الواحد . . وبرهان وجوده حقا أن يفعل مااستطاع من نفع أو أذى، كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث .

وغير جديد ما استمعوه من أصل العقائد الالهية عن مكان هذا الانسان من الأرض والسماء ومكانه من اخوته من آدم وحواء .

خلاصة ماتقدم أن الانسان فى عقيدة القرآن هو الخليقة المسئول بين جميع ما خلق الله . . يدين بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ، فلا تدركه الأبصار والاسماع .

و « الانسانية » من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد واله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتق سيئا ، وصدق النية فيها أحسنه واتقاه .

والانسان فى القرآن الكريم يقدمه العقاد فى جزئين كبيرين يبدأهما بعقيدة القرآن فيعيد هذه الكلمات القلائل فى صفحات ، ثم يتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث عن نشأة الانسان فى مذاهب الفكر والعلم أو مذاهب الحدس والخيال ، ولا يزيد العقاد فى سرد ذلك على الالمام بما يصلح أن يكون محكا للنظر فيما يؤخذ بالبرهان أو يؤخذ بالايمان عن حقيقة الانسان . . هذا فى الجزء الأول من الكتاب .

أما فى الجزء الثانى وهو الخاص بألانسان فى مذاهب العلم والفكر فيتناول فيه الانسان وتطوره فى الغرب والشرق ، والانسان فى علوم الأجناس والحيوان كذلك مستقبله فى علوم الاحياء .

**مطلع النور :**

مدار بحث كتاب « مطلع النور » هو عن البعثة النبوية — بعثة محمد عليه السلام — وما تقدمها من أحوال العالم ، وأحوال جزيرة العرب ، وأحوال الأسرة الهاشمية ، وأحوال أبويه الشريفين .

ويدور البحث فيها على نوعين من المقدمات :

مقدمات تمهد لنتائجها وتفضى إليها .

ومقدمات تأتى النتائج بعدها كأنها رد فعل لها ، وعلاج لاسبابها وعواقبها . .

مقدمات من قبيل الداء يأتى بعده الموت . فهو نتيجته وعقباه على الشرعة المعهوده فى طبائع الأشياء .

ومقدمات من قبيل الداء يأتى بعده الدواء ، فليس هو نتيجة له إلا على معنى واحد ، وهو لحاق الدواء بالداء ، وظهور الشفاء بعد الحاجة إليـــه . .

مقدمات تتحقق بها قوانين الطبيعة .

ومقدمات تتحقق بها عناية الله .

ولا سيما حين تأتى الحاجة إلى الشفاء من غير المريض بل تأتى على الرغم منه وعلى خلاف مايرجوه ويبتغيه .

ويتساءل العقاد : كيف نشأالتوحيد بعد التباس الوحدانية بالشرك واختلاط الأديان بين الآلهة والأوثان ؟

كيف نشأت ديانة الإنسانية بعد ديانات العصبية والأثره القومية ؟

كيف نشأت نبوة الهداية بعد نبوة الوقاية والقيادة ؟

كيف أصبحت المعجزة تابعة للإيمان بعد أن كان الإيمان تابعاً للمعجزة ؟

كيف ظهر الإسلام بعد عبادات لاتمهد له ولا يبقى عليها ؟

مقدمات لم تكن واحدة منها ممهدة لنتائجها ، وإن مهدت لها خطوة فى الطريق فقد تنكص بها بعد ذلك خطوات وخطوات .

وهذه هى المقدمات التى لاتأتى بعدها النتائج الصالحة إلا بعناية من الله واتجاه بقوانين الكون وعوامله إلى حيث يشاء . .

فليست الجاهلية مقدمة للإســـلام .وليس الفساد فى العالم سبب الصلاح .

وليست قريش ولاجزيرة العرب ولادولة القياصرة هى التى بعثت محمداً لينكر العصبية على قريش ويعلم العرب تسفيه التراث الموروث من الآباء والأجداد ، ويثل العروش التى قام عليها الطغاة وتأله عليها الجبابرة من دون الله .

هؤلاء جميعاً كانوا ضحية البعثة المحمدية .

والعقاد يقرر بأن هؤلاء جميعاً كانوا مريضها الذى شفى على يديها بغير شعور منه بالمرض وبغير سعى منه إلى الشفاء .

وتلك هى المقدمات ونتائجها تتجه بها عناية الله .

رسول يوحى إليه فيصنع الاعاجيب .

ذلك مايقوله المؤمنون بعناية الله .

فإذا استطاع المنكرون أن يقولوا غير ذلك فليقولوه .

وليفسروه ، ذلا تفسيرله عندهم إلا أن الفساد يصلح الفساد وأن الداء يشفى الداء وأن الاسباب تمضى فى طريقها فتختلف بها الطريق وتذهب إلى حيث لايفضى الذهاب . .

جاء محمد بدين الإنسانية فى أمة العصبية .

جاء ينكر كل إله غير الواحد الأحد فى عالم يؤمن بكل إله غير الواحد الأحد ، أو يؤمن به كأنه صنم من الأصنام يتعدد فى كل بيعة وكل مقام . أمحمد وحده يقدر على ذلك ؟

أمحمد يقدر عليه بعناية من الله !

أو فى القولين إلى عقل العاقل أدناهما إلى الايمان وأنآهما عن الصواب وانآهما عن الله .

ولولا تدبير من الله لما ادخرت جزيرة العرب لهذه الرسالة لتخرج بالتاريخ الإنسانى كله إلى عالم جديد .

الخلاصة أن كتاب مطلع النور صور لنا طوالع البعثة المحمدية ، وما تقدمها من أحوال الأمة العربية وأحوال العالم . كذلك يتضمن قصة النور .

وكيف نشأت فى غشاوات الجهالة ، وقصة الإيمان وكيف يقضى على عبادة الأوثان والعقاد فى هذا الكتاب لا يؤرخ للدعوة بقدر مايدافع عنها ، وعن صاحبها يقدم هذا فى بحوث شائعة تفسر ظهور الإسلام وكيف أدى إلى أعظم نهضة إجتماعية وسياسية عرفها التاريخ .

**حقائق الاسلام**

**الكتاب يعرض القضية فى ايجاز واضح مؤداه ان هنا حقائق الاسلام وهناك خصوم لايكتفون بالخصومة بل يؤكدونها بالأباطيل وليست حقائق الاسلام الا الجوهر المصفى للدفاع عنه . فاننا لو عرضنا حقيقة ناصعة واضحة فقد عرضنا معها طريقة الدفاع عنها .**

فهل للدين حقيقة قائمة ؟ أو هل للدين ضرورة لازمة !

سؤالان متشابهان نجد أجابتهما على صفحات هذا الكتاب الذى يناقش أربع أمور جوهرية فى الإسلام هى العقائد والمعاملات والحقوق والأخلاق .

فحين يتحدث عن العقائد يبدأ بالعقيدة الإلهية بوضعها رأس العقائد الدينية فى جملتها وتفصيلها . وقد قيل أن من عرف عقيدة قوم فى الإله

فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان ومن صحة المقاييس التى يقاس بها الخير والشر وتقدر بها الحسنات والسيئات فلا يهبط دين وعقيدته فى الإله عالية ولا يعلو دين وعقيدته فى الإله هابطة .

ثانى هذه العقائد هى النبوة وما نحسب أن النبوة تعظم بكرامة أبداً أكرم لها من التوكيد بعد التوكيد فى القرآن الكريم لتمحيص هذه الرسالة السماوية لهداية الضمائر والعقول وجعل النبوءة فى مكان لائق بها .

ثالث هذه العقائد الانسان الذى ترون من أحسن تكوين إلى أسفل سافلين ولا يزال فى الحالين إنساناً مكلفاً قابلا للنهوض بنفسه بعد العثرة قابلا للتوبة بعد الخطيئة محاسباً بما جنت يداه غير محاسب لما جناه سواه .

والعقيدة الرابعة العبادات فالدين يعرف بعبادته بين أناس كثيرين لا يعرفون بعقائده وربما استدلوا على العقائد بالعبادات لأن العبادة فرع من العقيدة يشاهد عياناً فى حيز التنفيذ أو التطبيق فلماذا يكون الصوم شهراً ! ولا يكون ثلاثة أسابيع أو خمسة .

لماذا تكون حصة الزكاة جزءاً من عشرة أجزاء ولا تكون جزءاً من تسعة !

لماذا تركع وتسجد ولا تصلى قياماً أو قياما وركوعاً بغير سجود القسم الثانى من حقائق الإسلام هو فى معاملاته .

القسم الثالث هو فى الحقوق .

والكتاب فى مجمله يقدم حقائق الإسلام وأباطيل خصومه فى العصر الحاضر ولقد وقف الاسلام مرات فى مثل هذا المفترق أمام خصومه منذ قيام الدعوة المحمدية وصمد لحملات عنيفة كهذه الحملات التى يشنها عليه خصومه فى العصر الحاضر ، ولكنها على أ كثرها كانت من قبيل الحملات المادية والحملات الحربية التى شنها عليه منافسوه من أرباب الدولة والسلطان ، وقل أن وقف الاسلام طويلا أمام قوة يحفل بها لأنها تتصدى له من الوجهة الروحية . إذ كانت القوى الروحية التى تصدت له فيما مضى تنظر إلى ماضيها فتلمس فيه الفارق بينها وبينه ولا تأمن عاقبة الجولة فى هذا المجال وهى مجردة من عدة الدولة والسلطان وكانت من جانبها مشغولة بخصوماتها ومنازعاتها بين نحلها ومذاهبها ، وتتجرد للحملة عليه إلا أن تتأهب للغلبة عليه بقوة السلاح ؟

أما حملات العصر الحديث فأهونها فيما يرى العقاد حملات الدولة والسلطان ، وهى الحملات التى شنها عليه الاستعمار ثم ظهر منها بعد حين أنها لم تقتل فيه قوة المقاومة ولم تمنعه أن يصمد لها فى ميدان البأس والحيلة . فكان صموده الاسلام لمحنة الاستعمار آية من من آيات القوة الروحية التى تسعد المعتصمين بها حين تخذلهم قوة السلاح وقوة السياسة وقوة العلم وقوة المال . ولولم يكن فى هذه العقيدة الخالدة سر أعمق جداً من أسرار العقائد الشائعة لما اعتصم المسلمون منها بمعتصم نافع أمام هذه القوى المتضافرة عليها مجتمعات .

الكتاب بإختصار يميز بين الحق والباطل لحين يقدم حقيقة الإسلام فهو فى واقع الأمر يدحض أباطيل خصومه .

**التفكير فريضة اسلامية :**

يستهل العقاد هذا الكتاب بميزة من مزايا القرآن الكثيرة ميزة واضحة وهى التنويه بالعقل والتحويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التكليف ، وأنه لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه وقد خاطبه بكل صوره المدركة للتصورات الانشائية والوازعة عن المحظورات والمنكرات، والراشدة المستبصرة والاستدلالية المستخرجة للأحكام وبذلك لا يخاطب القرآن إلا العقل بكل صورة وخصائصه ووظائفه . فالتفكير فريضة فى الإسلام .

ويدلل العقاد على أن التفكير فريضة إسلامية بالآيات الكريمة ومنها : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » ، « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » .

فالإسلام فى خطاب دائم ومتكرر للعقل الوازع الواعى المستنير بما يدلل على إحترامه للفكر .

والإسلام دين يفرض التفكير ويعترف بالمنطق وهو العلم الذى يهتم بالأصول والقواعد التى يستعان بها على تصحيح النظر والتمييز . وحكم الإسلام فى المنطق واضح لا يجوز فيه الخلاف ، لأن القرآن الكريم صريح فى مطالبة الإنسان بالنظر والتمييز ومحاسبته على تعطيل عقله وضلال تفكيره .

وإلى جانب المنطق كانت الفلسفة أيضاً . والفلسفة الإسلامية التى اعترف بها الإسلام كان لها أثر كبير فى تقدم العقلية الأوربية للعلم والعلماء

قرآناوسنة للعلم والعلماء . ووضع هؤلاء العلماء فى مكان لائق بهم يؤكد أن الاسلام دين وفكر .

ولو لم يكن الاسلام دين تفكير . . والتفكير فيه فريضة .. لقفل باب الاجتهاد . ولقال أنه يكفى الكتاب والسنة مصادرا له ولكنه أضاف الاجماع إلى الكتاب والسنة والأجماع يقوم على اجتهاد أولى الامر وأهل الذكر والعلماء والمفكرين بما اشتمل عليه من قياس واستحسان أو مصالح مرسلة .

كذلك التصوف وهو منسوب إلى أهل الصفة الذين كانوا على عهد الرسول مظهرا من المظاهر الفكرية فى الاسلام ويكفى أن نذكر لفلسفته ونظرياته .

والعقاد كتب فصول هذا الكتاب أملا أن يكون بينها جواب هاد لأناس من الناشئين يتساءلون هل يتفق الفكر والدين ؟ وهل يستطيع الانسان العصرى أن يقيم عقيدته الاسلامية على أساس من التفكير ؟ وهل يؤمن عقل الانسان بالدين فى هذا العصر ؟ ويرى فيه دينا أحق بالايمان به من الاسلام ؟

أما أن يؤمن الانسان بالدين فى أعماق وجدانه بمعرفة الفكرة فذلك بحث طويل ـ على حد قول الأستاذ العقاد ـ لا يستقصى فى سطور ولا صفحات ولكنه مع ذلك يتضح جلياً من حقيقة أن الإنسان جزء من هذا الوجود غير المحدود لابد له من صلة عميقة تربطه به أبعد غورا من هذه العبارات الحسية التى عقدها العلوم المتغيرة مع العصور والسنين فكيف تكون هذه الصلة ؟ تكون بالإيمان .

**وهذه الكتب ايضا :**

يضاف إلى هذه الكتب جميعاً كتابان هامان :

الأول هو « أبو الأنبياء إبراهيم الخليل » وفيه يحاول العقاد أن يستشف حياة النبى إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن طريق دراسة مقارنة لمراجعها المختلفة . ومنها الإسرائيلية والمسيحية والإسلامية إلى جانب المراجع التاريخية . ثم يحدثنا فيه عن رسالته ودعوته إلى عقيدة التوحيد .. تلك التى صححت نظر الانسان إلى الكون وإلى الحياة أو جعلته يعيهما وعيا كاملا .

أما الكتاب الثانى فهو عن السيد المسيح عليه السلام . وفيه يبسط فى سيرته عليه السلام . وعصره ، ودعوته وأدوات هذه الدعوة وشريعته ، شريعة الحب والسلام ، ثم يقوم بدراسة للأناجيل مع الاستضاءة بالكشوف الأثرية ، وتحليل رسالته التى قامت على الاخاء والسلام والتعاطف والمحبة .

كذلك كتب العقاد عن فلاسفة المسلمين المتقدمين ، والداعين إلى الإصلاح المحدثين . فألف كتابا عن حجة الفلسفة والطب والرياضة والفلك « الشيخ الرئيس ابن سينا » وآخر عن الفيلسوف الطبيب الفقيه « ابن رشد » أوضح فيها أصالة الفكر العربى عامة والإسلامى بصفة خاصة .

ومن المفكرين المحدثين الداعين إلى الإصلاح كتب العقاد عن عبد الرحمن الكواكبى كتابا بعنوان « الرحالة ك » صور فيه نضال العرب فى سبيل النزعة التحررية القومية .

وعن الشيخ محمد عبده كتاباً بعنوان « عبقرى الاصلاح الامام محمد عبده » رسم فيه عبقرية الإمام فى الاصلاح ، وصورة نفسية واضحة الملامح والمعالم من خلال جراده فى القضية الوطنية وحركة الإصلاح الأزهرية وخدماته التعليمية والاجتماعية ، وأيضاً من خلال مذهبه الفلسفى وما قام به من حركة التجديد الدينى . وهى صورة أرادها العقاد ما أراده فى الصورة السابقة لعبقرياته من وضع وقدوة حسنة تحت أعين أبناء هذا الجيل ، حتى يقتدوا بصاحبها فى الاضطلاع بأمانة العقيدة ، وأمانة الفكر وأمانة الحق وأمانة الاخلاق فى كل ما ينتمون ويعملون .

# الفصل السادس

## جديد أضافته الإسلاميات

والآن لنا أن نتوقف لحظات ..فيهالنلتقط أنفاسنا بعد أن فرغنا من قراءةاسلاميات الدكتور طه حسين ، والدكتور أحمدأمين والدكتور محمد حسين هيكل ، والأستاذ عباس محمود العقاد . وتعرفنا على خصائص كل مفكر ، وملامح منهجه الذى سار عليه فى تناول هذه المادة الإسلامية من جديد وقسمات هذه الإسلاميات وكتبها . بعد هذا نتوقف ونستمع إلى نفس السؤال الذى كان يلح علينا أثناء القراءة بل وقبلها . . والذى يقول : « وما هو الجديد الذى أضافته هذه الإسلاميات للفكر الإسلامى. هل كانت كتابات الأربعة تحصيل لحاصل وصورة طبق الأصل لما هو موجود فى الكتب القديمة ؟

والإجابة على هذا السؤال تلمحها جملة وتفصيلا فيما كتبه الأربعة .

وجملة ذلك من كون أن كل واحد من هؤلاء الأربعة لو لم يكن مقتنعابأن مايقدمه يعتبر إضافة للتفكير الإسلامى وليس تحصيلا لحاصل حل لما بدأ . وواصل الكتابة فى سنوات تعتبر من أنضج سنوات عمره وأخصبها إنتاجاً . .

وتفصيلا وذلك من إعادة النظر إلى هذه الإسلاميات لتحديد الفائدة التى عادت على التفكير الإسلامى منها . وهى الإضافة الجديدة لذات التفكير . . وسوف نجد أن هذه الفائدة أو الإضافة تتضح فى هذه الحالات التالية :

أولاً : اسلاميات الدكتور طه حسين والدكتور أحمد أمين والدكتور محمد حسين هيكل والأستاذ عباس محمود العقاد عملت على مواصلة واستمرارية كتابة السيرة المحمدية بعد أن أنقطع المؤرخون

أو كادوا . . عن كتابتها نيفا وأربعة قرون حيث كان كتاب « امتاع الاسماع بما للرسول من خولة وحفدة وأتباع » للمؤرخ المصرى الكبير تقى الدين المقريزى . . فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى .

فى هذه الفترة ـ من القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين تقريباً ـ لم يظهر كتاب فى السيرة النبوية الشريفة بإستثناء كتاب واحد ظهر منذ نيف وستين عاما تقريباً وهو الذى كتبه رفاعة رافع الطهطاوى تحت عنوان « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » .

وخلو هذه الفترة من اعادة كتابة السيرة المحمدية أمر كان له أثره . حين سمح بإنتشار قصص المتصوفة والدراويش التى تحيل سيرة النبى الكريم التى بدأت عند ابن هشام سيرة « بشر مثلنا » إلى سيرة كائن يسرف الرواة والمداحين من المتصوفة والدراويش فى وصف جمال خلقته وخولته وقدرته على مخاطبة الطير والحيوان والشجر والسحاب والنجوم ، وتفسير ما قع له عليه الصلاة والسلام تفسيرا اسطوريا خارقاً . « كأن يجعلوا القمر يهبط من السماء ويستقر فوق قمة الكعبة يوم مولده عليه السلام ثم يطوف حول هذه الكعبة ليدخل من كم ردائه الأيمن ويخرج من الكم الأيسر . . ثم ينقسم — أى القمر — إلى نصفين يتجه أحدهما إلى اليمين ويتجه إلى الآخر اليسار . . ثم يلتقى النصفان فى كبد السماء ليعاود القمر سيره فى فلكه . . . إلخ هذه الخرافات .

وهنا كانت كتابة السيرة بأقلام هؤلاء الأربعة . . وبالتحديد ، ما تضمنته كتب « حياة محمد » للدكتور هيكل و « عبقرية محمد للعقاد و « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين . . بمثابة القضاء على هذه

الخرافات ، ثم التصحيح لما جاءت به أو صاف هؤلاء المداحين والدراويش والمتصوفة . التى أضافت إلى حياة صاحب السيرة على الصلاة والسلام مالا يصدقه عقل ، ولاحاجه إليه فى ثبوت رسالته .

نقول كانت هذه الإسلاميات بمثابة أداة التنقية والبلورة التى تستهدف فى النهاية تقديم النبى الكريم فى صورة منطقية يقبلها العقل .. وخاصة هذا العقل الحديث الذى لم يعد يؤمن بالأساطير والخرافات .

ثانياً : وهذه الإسلاميات كانت بمثابة الرد القاطع والكامل . . على كتابات المتعصبين من الغربيين سواء منها ماظهر فى الاستشراق أو ماظهر على يد المبشرين . .

فقد لج هؤلاء الخصوم فى الطعن على النبى الكريم وعلى الإسلام والمسلمين مستفيدين من هذه الخرافات والخوارق التى نسجها العامة ، بل وما كتبه بعض علماء الدين فى القرون المظلمة عن أخذوا علمهم القليل عن المتأخرين المقلدين . . فقدموا السيرة بصورة ضعيفة مستهدفة للهجوم . . فكان رد أصحاب الإسلاميات ودفاعهم على أباطيل الخصوم وأتخذ هذا الرد أساليب عدة .. فكانت مباشرة حيث كما فعل العقاد فى كتابه « مايقال عن الإسلام » وفيه رد — كما رأينا — على عشرات الكتب التى كتبت فى الإسلام، وكان رده مدعماً بالحجة والمنطق والدليل .

وغير مباشرة حين قدمت حقيقة الإسلام وما يدعو إليه كما فعل طه حسين وأحمد أمين فى تناول الحياة الأدبية والعقلية فى الإسلام . وكما صنع الدكتور هيكل فيما كتب ، والأستاذ العقاد فى عبقرياته وشخصياته وبحوثه ودراساته . حيث عمل كل منهم فى ميدانه جاهداً ليقدم حقيقة هذا الدين المفترى عليه .

ثالثاً : كذلك فإن استخدام أصحاب الإسلاميات للنهج العلمي الحديث فى كتاباتهم الاسلامية فيه نفع وفائدة للمسلمين .

فهذا المنهج الذى يقتضى من الباحث أن يبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم الاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية لتكون نتيجة بحثه أيا كانت نتيجة علمية مالم يثبت أن الخطأ قد تسرب إلى ناحية من نواحيها وإن ظلت هذه النتيجة خاضعة للبحث والتمحيص من ذوى التخصيص فيها والاهتمام بها .

استخدام هذا المنهج فيه نفع وذلك حين أصبحت العقلية الحديثة تتقبله ، وترفض ســـواه فالمسلم الذى لايجد الإسلام مكتوباً بهذا الأسلوب من التفكير لاشك أنه سيبحث عنه فى كتابات أخرى لغير المسلمين وهنا يسهل ضرب الإسلام فى صورة الهجوم على رسوله والتطاول عليه والافتراء ، يخرج هذا بصورة مبسطة قريبة من عقل القارىء الحديث .

وفضلا عن أن هذا المنهج العلمى قريب من روح الإسلام كما عرفنا فهو طريقة القرآن فى البحث ، وهو طريقة السلف من فلاسفة المسلمين . وفى مقدمتهم الامام أبو حامد الغزالى .

هذا بالنسبة لنفع المسلمين وفائدتهم . وأما لغير المسلمين من هؤلاء المستشرقين والمبشرين المتعصبين فاستخدام المسلمين للنهج العلمى فيه سد الطريق أمام دعاته من الأجانب . فحين يجد هؤلاء الأجانب أن المسلمين وهم أحرص على دينهم من غيرهم — قد سارعوا وتناولوا الاسلاميات بالمنهج العلمى .. الذى يتفق مع العقلية الحديثة فلا مجال

إذن أمامهم لاستخدامه ، ولا يجدون أمامهم غير الكف عن الكتابة فى الاسلام وتركها لمن يخشيهم أمرها وهم أصحابها .

رابعاً : والاسلاميات إن لم تكن هى تأريخ الحضارة الاسلامية بكل ماتحمل هذه الكلمة من معانى فهى على الأقل تسهم فى تقديم صورة دقيقة لهذه الحضارة الاسلامية بكل مقوماتها .

والحق أنه قبل كتابة هؤلاء الأربعة فى الاسلام كان البحث عن الحضارة الاسلامية غير متيسر .. فالعرب كما نعلم لم يعرفوا هذا النوع من التأريخ . . مثل غيرهم من أمم الحضارات القديمة . . كاليونان والرومان والفرس . . ممن حرصوا على الاهتمام بتأريخ حضاراتهم .

لأن العرب لم يعرفوا أو على الأقل لم يهتموا بهذا النوع من التفكير فإنه يصعب على الباحث الذى ينهض لتصوير الحضارة الاسلامية فى مختلف عصورها . . مع بيان العناصر المكونة لها . والظروف التى أدت إلى ظهورها . . كالعوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية لن يجد هذا الباحث شيئاً من هذا قديماً . .

ولكن بعد أن قدم هؤلاء الأربعة الاسلام فى صورة حديثة . . فجددوا بذلك روح الحضارة الاسلامية ، وحددوا معناها فعندما يتفق الدكتور طه حسين مع كل من الدكتور أحمد أمين والأستاذ عبدالحميد العبادى على كتابة الحياة الاسلامية من جوانبها الأدبية والعقلية والسياسية فإن ذلك ولا شك يعنى الاهتمام لعناصر الحضارة الاسلامية وتوضيحها .

وعند ما يكتب الدكتور محمد حسين هيكل عن حياة صاحب الرسالة ويعقبه بالكتابة عن الخلفاء الثلاثة « أبو بكر » و « عمر » و « عثمان » ثم عن المكان الذى نزل فيه الوحى ، وبعد ذلك عن الإمبراطورية الإسلامية . . فإنه يقدم صورة للمجتمع الإسلامى . . وهو تناول حضارى .

وحين يضع العقاد أمامه الاسلام تاريخه ورجاله ويقسمه فى التناول إلى عبقريات وشخصيات ودراسات وأبحاث فإنه ولا شك يقدم مقومات وعناصر لهذه الحضارة الإسلامية محددة واضحة .

خامساً : وهذه الإسلاميات بأسلوبها الجديد استطاعت أن تكون خير دعاية للإسلام فى عالمنا الحديث فكثيراً ما نسمع أن إحدى الجامعات فى الخارج تدرس إسلاميات الدكتور هيكل أو أن إحدى الهيئات العلمية قامت بترجمة إسلاميات طه حسين أو العقاد وأحمد أمين . . فإن ذلك يعنى أول ما يعنى دعاية إيجابية للإسلام . . دعاية تخطت الحدود . وهى فى نفس الوقت الذى تقدم فيه حقيقة الإسلام فهى تصحح ما يكون قد دسه الاستعمار والصهيونية على الإسلام والاثنان أخطر المغرضين قديماً وحديثاً والعقاد له فى هذا الجانب بالذات وجهة نظر مفيدة مؤداها أن الدعاية الصهيونية بوجهيها العلنى والمقنع هى من أخطر ما يواجه الإسلام . . خاصة وإن كان هؤلاء الصهاينة يملكون من وسائل هذه الدعاية والكثير منهم يملكون دور النشر ، ويملكون الإذاعات ، ويملكون أسهما وافرة فى شركات السينما وينتسب إليهم عدد كبير من الممثلين والممثلات ونقاد المسرح ، وإلى جانب هذه الوسائل الفنية والمالية

وسائلهم وراء الستار وأمامه بين الساسة والنواب والمرشحين لمراكز الزعامة والمتنازعين على الأصوات فى مواسم الانتخابات ، واستخدامهم لوسائل الجمال فى هذه المعارك . وما إليها بأقل من استخدامهم لوسائل المال .

كذلك يشير العقاد إلى الاستعمار وبأنه قوة تضارع الدعاية الصهيونية الخفية إن لم تزد عليها فى بعض الأحوال إذ هى قوة الدولة وقوة المال وسائر القوى المسخرة للسياسة والتبشير مجتمعات . وكلها تحاول تشويه الاسلام .

هذا خلاصة ما ذكره العقاد فى تقديمه لكتاب « ما يقال عن الاسلام » فيما يختص باعتداء الصهيونية والاستعمار على الاسلام .
ومن هنا نرى أن العقاد وبقية أصحاب الاسلاميات كانوا يكتبون وفى ذهنهم شبح الدعاية الاستعمارية والصهيونية التى تفترى على الاسلام .. لذلك كانت كتاباتهم تخاطب العقل قبل العاطفة وتقنع المسلم وغير المسلم لتكون خير دعاية للإسلام بنبيه ورجاله فى العالم الخارجى .

سادسا : ولعل أعظم فائدة أسدتها الاسلاميات للإسلام والتفكير الاسلامى أن أتاحت السبيل للنشء أن يطلعوا عليها . وذلك بعد أن قررت بعضاً منها وزارة التربية والتعليم فى مدارسها . فأكثر عبقريات الأستاذ العقاد قد قررت ، وكذلك على هامش السيرة للدكتور طه حسين .

هذه الفائدة لا تخفى علينا فى مجال حصر ما أضافوه للإسلام .

خاصة وإن كان جنى ثماراتها فى أبنائنا . وهم أحوج الناس إلى التعرف على الاسلام بصورته المثلى ليشبوا على هدى من هذا الدين الحنيف أقوياء بإيمانهم وتمسكهم بالدين .

وهو فى مقدمة ما ترجوه الدعوة الاسلامية أن ينتشر الاسلام بين أصحابه .

أقول لولا وجود هذه الاسلاميات بصورتها المقنعة المبسطة لما تيسر للقائمين على التربية والتعليم أن يقرروها ضمن مناهجهم . وإلا هل كان من الممكن مثلا أن يقرروا سيرة ابن هشام أو « امتاع الاسماع بما للرسول من خولة وحفدة وأتباع » للمقريزى أو « نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز » للطهطاوى وغيرها من الكتب التى لاننكر فضلها ولكن ربما تكون مستغلقة على فهم الأبناء فى بداية تكوينهم الثقافى .

وعلى هذا فيمكن القول بأن الاسلاميات استطاعت أن تضيف جديداً إلى التفكير الاسلامى وأنها لم تكن بحال من الأحوال تحصيل لحاصل فى كتب قديمة .

## وبعـــد

فهذه « اسلاميات الدكتور طه حسين ، والدكتور أحمد أمين ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والأستاذ عباس محمود العقاد » .

ترى هل هذه الاسلاميات التى انفق فيها أصحابها زهرة عمرهم ، قد انتهت عند آخر سطور هذا الكتاب ؟

وهل تحسب أن هذه الصفحات تزعم لنفسها أنها قد أوفت على الغاية وشارفت على الغرض ؟

وهل هذه الصفحات استطاعت أن تغطى ما أثارته هذه الاسلاميات من نظريات ومناقشات وتساؤلات وآراء وافكار ؟

لا . . فاسلاميات هؤلاء العمالقة الأربعة غزيرة كالضوء المنتشر ، ممتلئة كالسحاب الثقال ، عظيمة عظمة من كتبت عنهم فى الاسلام ؟

وهذا الجهد المتواضع الذى اسعفه توفيق من الله وعونه ليس سوى « اشارة » الى هذه الاسلاميات الحافلة بالنظريات والمناقشات والتساؤلات والآراء والأفكار .

سامح كريم

# مصادر


إسلاميات . . . . . . الدكتور طه حسين

إسلاميات . . . . . . الدكتور احمد امين

إسلاميات . . . . . . الدكتور محمد حسين هيكل

إسلاميات . . . . . . عباس محمود العقاد

تصوير طه حسين والعقاد وهيكل لأبي بكر وعمر على ابو بكر محمد

الأيام . . . . . . . الدكتور طه حسين

أنا . . . . . . . عباس محمود العقاد

مذكرات فى السياسة . . . . د . محمد حسين هيكل

حياتى . . . . . . . الدكتور احمد أمين

مع طه حسين . . . . . سامى الكيلانى

أثر الثقافة الفرنسية فى فكر طه حسين . كمال ثابت

مع العقاد . . . . . . د . شوقى ضيف

هيكل حياته وتراثه . . . . . د . طه عمران وادى

محاضرات عن أحمد أمين . . . الدكتور زكى المحاسنى

العقاد دراسة وتحية . . . . تلاميذ العقاد

الشخصيات العشرون . . . . محمود تيمور

محمد وهؤلاء . . . . . . احمد عبد المعطى حجازى

حياة محمد لهيكل ( مقالة ) . . . . . **د . حسين فوزى النجار**

ضحى الاسلام ( مقالة ) . . . . **الدكتور شوقى ضيف**

رأيت وسمعت . . . . . **محمد كرد على**

عدد الهلال الخاص . . . . . **عن طه حسين**

عدد الهلال الخاص . . . . . **عن العقاد**

الموسوعة العربية الميسرة

دائرة المعارف الاسلامية

# موضوعات الكتاب

سلسلة

# ( كتاب الإذاعة والتليفزيون )

صدر منها :

| | |
|---|---|
| ١ ـ لغتنا الجميلة | فاروق شوشة |
| ٢ ـ ممنوع من التداول | محمود عوض |
| ( طبعتان ) | |
| ٣ ـ قصة الضمير المصرى الحديث | صلاح عبد الصبور |
| ٤ ـ عصر التليفزيون | عبد المنعم حسن |
| ٥ ـ مذكرات محمد كريم | محمود على |
| ( جـزآن ) | |

الـكتاب القادم

ممنوع من التداول — محمود عوض

طبعة ثالثة جديدة

دار الســـلام للطباعة
ت : ٩٠٦٦٨٢



## هذا الكتاب

قرأت هذا الكتاب فسرني ما لمسته من قدرة المؤلف على تحديد ملامح كل كاتب وإعطاء خصائصه والاستشهاد لذلك بكثير من كتاباته . فكان يعطى بذلك إلى جانب صورة الكتاب صورة مؤلفه وخصائص أسلوبه.

إن هذا الكتاب يثير الرغبة الحارقة فى قراءة الكتب التى يقدم خصائصها المؤلف ويتحدث عن مناهجها .

« من تقديم الإمام الأكبر الدكتور محمد محمد الفحام »

